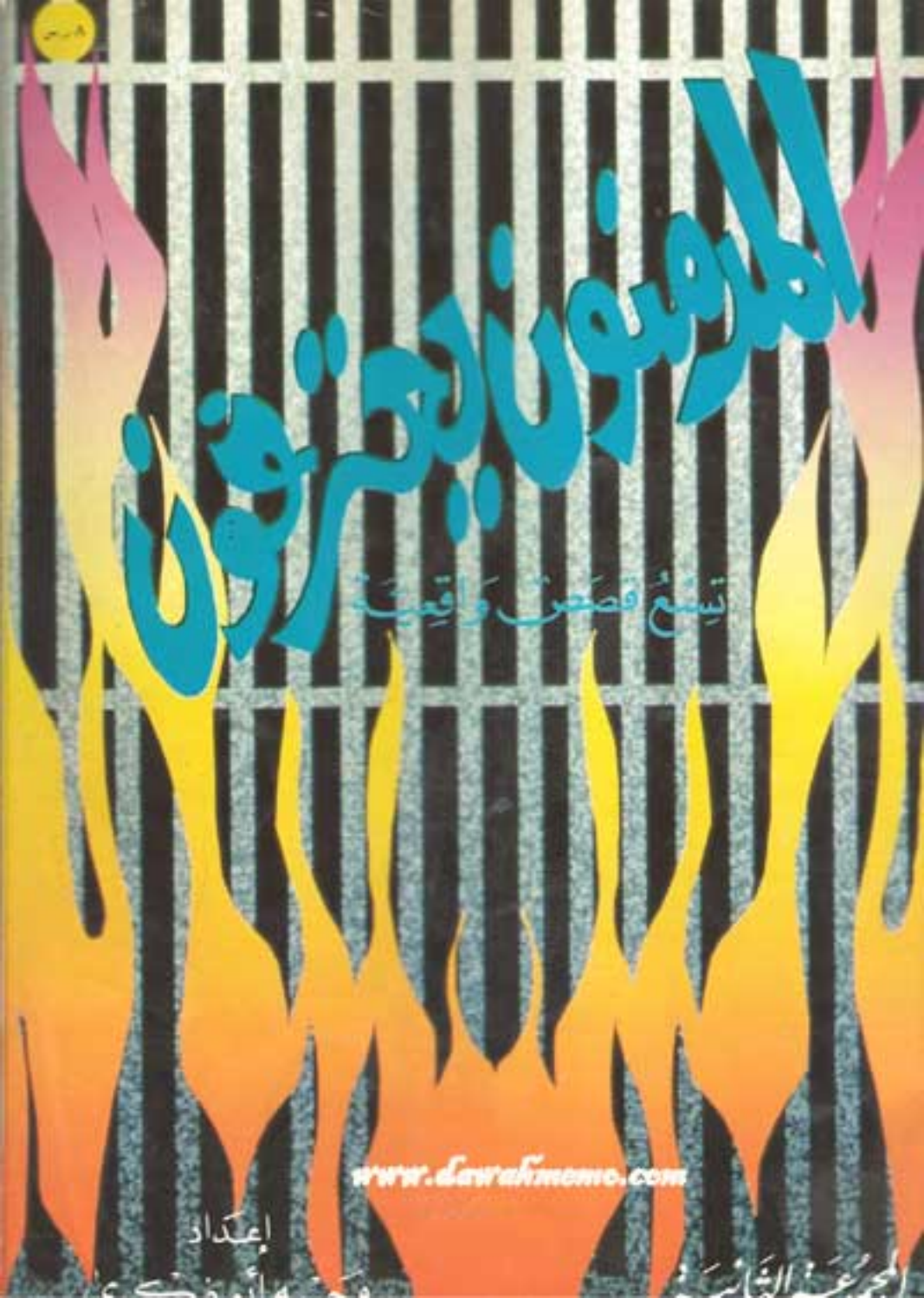
المدهشون يعترفون
تسع قصص واقعية
www.dawahmemo.com
إعداد
المجموعة الثانية

جَمِيع الحُقُوق محْفوظَة

الطبعَة الأُولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

(د ٤)

المجموعة الثانية

المدمنون يعترفون

تسعُ قصصٍ واقعيّة

إعداد
وجيه أبو ذكرى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

لماذا؟

لماذا كتاب كامل عن تراجيديا المخدرات؟

لماذا؟

لمـاذا مشقـة لقـاء البحث عن المدمنين في المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وغرف الإعدام؟

لماذا؟

لماذا مشاركة رجال الشرطة في حملاتهم ضد تجار المخدرات، في الحواري الضيقة وتوقع تبادل إطلاق الرصاص؟

لماذا؟

لمـاذا المخـاطـرة في الـذهاب حيث أوكار المخدرات والمدمنين الخطرة والقذرة؟

لماذا؟

لمـاذا التـواجـد في مواقع الجرائم الجديدة البشعة على مجتمعنا المؤمن المسـالم، تلك الجـرائم التي قلبت موازين قوانين الطبيعة، بل والقوانين السماوية ذاتها وناموس الحياة؟

لماذا؟ . . والمكتبة العربية عامرة بعشرات الكتب عن المخدرات،

ألم يكن يكفي بحث علمي ـ من خلال عشرات الكتب ـ عن خطورة المخدرات

ألم يكن يكفي بحث علمي ـ من خلال عشرات الكتب ـ عن خطورة المخدرات، بدلاً من المجازفة والبحث في مواقع الإدمان.

* * *

والجواب باختصار شديد: أن حجم مشكلة الإدمان لا يتصورها أحد، إن حجمها فاق كل تخيل، إن خطة صهيونية محكمة وذكية تستهدف مصر، بل ومعها الأمة العربية، وتلتهم هذه الخطة أعز ما تملك مصر، وأعز ما تملكه مصر هو شبابها. إن أعداء مصر وأعداء الأمة العربية يجدون في استنباط أنواع جديدة من المخدرات، قذائف عالية المفعول، دقيقة في إصابة الهدف، فأطلقوها لإصابة قلب الأمة. إن حرب المخدرات التي يجب أن نخوضها بكل الأسلحة هي أبشع بمراحل من حرب الجراثيم، فحرب الجراثيم ـ رغم تحريمها وبشاعتها ـ محددة بزمن معين هو زمن الحرب، ومكان معين هو ساحة القتال، ولكن الزمان هنا في حرب المخدرات لا ينتهي، والمكان هنا هو الأمة بأسرها، والهدف هو قلب هذه الأمة. فتصوروا أمة كاملة يغرق شبابها في بحور الإدمان.

* * *

لقد دفعت ثمناً غالياً في سبيل إعداد هذا الكتاب، حتى كدت أدفع حياتي ثمناً لإعداده.

كنت ألتقي ـ مثلاً ـ بالضحية، أو مريض الإدمان، وأراه ـ دون الإدمان ـ أملاً لمصر، وفخراً لها، وبعد الإدمان قد دمر حياته، ودمر أسرته، ودخل دائرة الموت المحقق.

كنت ألتقي ـ مثلاً ـ بشاب أدمن فارتكب جريمة قتل بشعة لا

أخلاقية، وهو يجلس في غرفة انتظار تنفيذ حكم الإعدام، فإذا به شاب كان نافعاً لمجتمعه قبل الإدمان، ولكنه بعد الإدمان أصبح معولاً يهدم كل جميل في هذا المجتمع.

كنت ألتقي ـ مثلاً ـ بطبيب شاب، سقط في كمين الإدمان، يبحث عن طوق نجاة للخروج من يم المخدرات فلا يقوى على الإمساك بطوق النجاة، وإذا به يغرق ويموت.

* * *

شباب في عمر الزهور يغرقون سراً.

شباب لم يبحث عن المواد المخدرة، بل هي التي تطرق بابه وبشدة وتلح عليه إلحاحاً.

ليس سراً أن المخدرات أصبحت متوافرة في كل مواقع الشباب، في الجامعات، في المدارس، في الأندية، حتى في الساحات الشعبية.

وليس سراً أن المخدرات قد طالت لأول مرة المرأة، فأصبحنا نسمع عن المرأة المدمنة، والمرأة هي أم رجال المستقبل، فتخيلوا أمهات المستقبل مدمنات!!!

تحت شعار «جرب مرة واحدة»، سقط في كمين الإدمان الشباب والفتيات، فهذه التجربة هي الخطوة الأولى في طريق الإدمان، فهي أشبه بتجربة الانتحار، فبعد التجربة الأولى للمخدرات يصبح من الصعب الفرار من هٰذا السم القاتل.

* * *

لماذا كتاب تراجيدي عن المدمنين؟

لأن الإدمان يدفع بالشاب الطاهر إلى حالة من الجنون، لا يستطيع

أن يفرق بين أمه وبين بقي، بين أبيه وبين عدو للدود، بين أخيه وبين حيوان يريد أن يفترسه، لهذا سمعنا عن كل الجرائم البشعة التي تملأ أعمدة الصحف هذه الأيام، ثم ندهش، دون وقفة لمعرفة الأسباب التي تودي بمعلم اغتصب تلميذته الصبية، ولا لمعرفة دوافع شاب يقتل أمه.

لقد دفع الإدمان بالمدمنين إلى كل آبار الرذيلة السحيقة، وانتزع منهم الضمير والتقاليد والمبادىء والقيم، وحولهم إلى وحوش كاسرة لا رادع لهم ولا دين.

لقد بحثت عن رقم يصور العلاقة بين الإجرام والإدمان، فوجدت أن سبعين في المائة من جرائم السرقة والقتل والاغتصاب بسبب الإدمان.

إذن.. فوراء الإدمان خطة ماكرة، لتحويل المجتمع إلى غابة، يسود فيها تجار المخدرات.

* * *

لماذا كتاب تراجيدي عن المدمنين؟

إن مصر مستهدفة في اقتصادها.. لكي تتوقف كل أنواع التنمية.. فكانت خطة القضاء على الاقتصاد المصري بعدة وسائل:

القروض: وهي نوع خطير من الاستعمار الجديد، وإضعاف الاقتصاد القومي، حيث تتعاظم القروض، حتى تصل أقساطها إلى حد يفوق القروض الجديدة، ومعنى ذلك أن الإنتاج كله أو نسبة كبيرة منه تذهب تسديداً لأقساط الديون، حتى يأتي اليوم الذي نجد فيه المجتمع كله يعمل لحساب تسديد الديون فقط.

توظيف الأموال: وهو خطة جهنمية لوقف مشاركة مدخرات المصريين في الداخل والخارج في تنمية بلدهم.

ثم . .

الإدمان: وهو في تصوري أخطر من كل القضايا السابقة . . لماذا؟

لأن توظيف الأمـوال يمكن وقفـه بقانون مهما كانت الآثار السلبية المؤقتة على الاقتصاد.

ولأن القـروض . . يمكن للحكـومة أن تعد خطة تتوقف عن قبول القروض . . أو قبولها بشروط ميسرة جداً . . بحيث لا تستنزف الاقتصاد.

ولكن . .

الإدمان يشبه الأخطبوط . . فإنه يحطم المجتمع بالكامل، والدليل على أن الأفيون حطم ذات مرة شعباً كاملاً . . هو الشعب الصيني . . وكان الاستعمار البريطاني هو الذي يقف وراء دفع الشعب الصيني كله إلى إدمان الأفيون، ولولا ماو . . ما أفاق الشعب من الإدمان . . ولولا إدمانه لما تمكنت بريطانيا من السيطرة عليه . . ولما تمكنت من استنزاف كل خيراته.

تجربة بريطانيا في الصين . . تحدث الآن . . لا في مصر وحدها بل في كل أنحاء الأمة العربية، فالمحاولة هي استنزاف كل موارد هذه الأمة.

تعالوا نقرأ الأرقام . .

الديون العالمية المدينة بها مصر تقدر بنحو أربعين ملياراً من الدولارات.

هذه الديون . . تستنزف الكثير من إنتاج مصر ودخلها لدفعه أقساطاً سنوية لهذه الديون.

والمبـالـغ التي تنفق على المخـدرات سنوياً حوالي عشرين مليار دولار، حسب تقدير الباحثة الدكتورة . . . أي أننا ننفق في العام الواحد نصف كل الديون التي اقترضناها على مدى سنوات طويلة ماضية، أي أننا

لو استطعنا القضاء على تجارة المخدرات، فإننا حققنا لمصر عشرين مليار دولار سنوياً.

* * *

لماذا كتاب عن المدمنين والمخدرات؟

في السنوات العشر الماضية، نتحدث كثيراً عن الفساد، وأحياناً يرى اليساريون أن سبب انتشار الفساد هو تجربة الانفتاح الاقتصادي التي بدأها السادات، وعلقوا «قضية الفساد» على مشجب الانفتاح الاقتصادي واستراحوا. في الوقت الذي تؤكد فيه الأرقام الرسمية أن سياسة الانفتاح هذه أتاحت فرص عمل سنوية لحوالي خمسة وستين في المائة من الخريجين.

إذن.. ما هي أسباب الفساد؟

لا مبالغة في قولي هذا.. إن السبب الرئيسي للفساد في أية دولة هو «مافيا المخدرات».. فلكي تصل المخدرات إلى «المستهلك» لا بد أن تجد مسئولاً فاسداً، وحارساً فاسداً، وقاضياً فاسداً، ولولا هذا الفساد، لما وصلت المخدرات إلى المستهلك. إذن لابد لمافيا المخدرات أن تخلق هذه العناصر الفاسدة، حتى يمكن لهم ترويج بضاعتهم السامة.

تعالوا نتحدث بصراحة.. فالأمر خطير.

تعالوا نتحدث بصراحة.. ونسمي الأسماء بمسمياتها.

* * *

مافيا التعويضات في وطني تتجه إلى أن تتحول إلى حكومة قوية داخل البلاد، فهي تتشكل في انشغال الحكومة بقضايا هامة، دون اعتبار أن قضية المخدرات هي ـ الآن وليس غداً ـ أهم قضية.

وتعالوا . . نقترب من حكومة مافيا المخدرات . .

إذا كانت حكومة مصر تتعامل في ستين ملياراً من الجنيهات، فإن حكومة مافيا المخدرات تتعامل في عشرين ملياراً من الدولارات، أي أن الأرقام تتقارب!!

فمليارات مافيا المخدرات . . ماذا يمكن أن تفعله في المجتمع؟

في أمريكا اللاتينية، في بلاد إنتاج المخدرات، فإن تجار المخدرات هم الذين يشكلون الحكومة، بما لديهم من نفوذ وقوة، لذلك، هناك استحالة في القضاء على إنتاج المخدرات، وأصبحت قوتهم أشبه بالأساطير، فإن من يقف في وجههم، سواء من الصحفيين، أو رجال الشرطة، أو القضاة، أو الجمارك، فما أسهل أن تجد جثته ملقاة في الشارع . . والفاعل مجهول.

وفي مصر . . هناك محاولات للوصول بمافيا المخدرات إلى حكومة قوية.

* * *

قلت: تعالوا نتحدث بصراحة فالأمر خطير.

يتحدثون في مصر عن ضابط المباحث الكبير، الذي ضبط مخدرات قيمتها خمسة ملايين جنيه، وفي المحضر أثبت أن قيمة المخدرات المضبوطة تقدر بمليون جنيه فقط، وقد أدين هذا الضابط، وخرج من الخدمة، ومات بعد خروجه بقليل.

* * *

في بولاق، حيث توجد مؤسستان إعلاميتان عملاقتان هما أخبار اليوم والأهرام، توجد أوكار تجارة المخدرات، وعندما فشلت الشرطة في القضاء

على هذه الأوكار، قام الأهالي بتجربة فريدة.. أن يقاوموا بأنفسهم تجار المخدرات.. وقاموا بتمرد على هؤلاء التجار أطلقوا على هذا التمرد «ثورة الحجارة».. حيث قاموا بإلقاء الحجارة على التجار.. وعلى كل مدمن يدخل حارة «الجيارة» التي بدأت فيها التجربة.. ولكن:

جاءت إلى مكتبي واحدة من زعيمات هذا التمرد.. تبدي لي تخوفها من فشل التجربة.. لأن «صبيان» تجار المخدرات يذهبون إلى قسم الشرطة.. حيث يجدون المساندة.

كيف؟

تتحدث عن حفل زفاف تكلف أكثر من خمسين ألف جنيه لأحد ضباط الشرطة.. في أحد الفنادق.. على نفقة تاجر مخدرات.. وأموال أخرى ترك على أثرها الضابط عمله في الشرطة!!

* * *

يتحدثون في مصر.. عن وكيل النائب العام الذي حاول تهريب اثنين - غير مصريين - تم ضبطهما وفي حوزتهما مخدرات، وحاول الرجل المسئول تهريبهما من مطار القاهرة الدولي نظير مبلغ كبير.. وقد تم ضبطه بشكل درامي مفزع.

يتحدثون عن عضو مجلس الشعب الذي يتاجر في المخدرات، ولم تتمكن أجهزة مكافحة المخدرات من رفع الحصانة عنه، وكان من المهم أن يضبط متلبساً، حتى يتم وقاية المجتمع من سمومه، وقد تم ضبطه متلبساً.

* * *

يتحدثون في إدارة مكافحة المخدرات عن اثنين في مؤسسة

تشريعية تحوم حولهما شبهة تجارة المخدرات، وخاصة تجارة الهيروين.

يتحدث المستشار عادل صدقي رئيس محكمة الجنايات السابق إلى جريدة «الأخبار» ويقول كلاماً خطيراً عن المخدرات في مصر.. إنه أصدر حكماً بالإعدام على ثمانية عشر من تجار المخدرات، وقد أدى ذلك إلى تراجع تجار المخدرات، إلا أنه لا يعلم حتى الآن لماذا لم يتم تنفيذ هذه الأحكام!!

* * *

إذن.. مافيا المخدرات تتسلل إلى مواقع خطيرة.

إلى الشرطة التي تكافح هذه السموم.

إلى القضاء الذي يستطيع أن يقضي على هذه المؤسسات القاتلة للشعب.

إلى مجلس الشعب حيث الحصانة والتشريع.

ربما لم تجد هذه العصابات موقع قدم في هذه المواقع الخطيرة، وربما وجدت، ولا أحد يدري مدى إنجازهم الشيطاني في هذا الطريق.

* * *

يتحدثون عن المعلم الكبير «رئيس المافيا»، ويحددون بعض ملامحه، وهو رجل خطير، له علاقات قوية بكبار المسئولين، وكان في قمة السلطة، ولم يعد الآن كذلك، ولكن بملياراته يملك سلطة نافذة، ويحاول أن يفسد قمة المجتمع، حتى يتمكن من خلال فساد القمة أن يدخل كل أنواع السموم في مصر.

* * *

والآن.. ما هو الحل؟

لقد قدمت نماذج في هذا الكتاب عن هؤلاء الشباب الذين دخلوا دائرة الموت عن طريق المخدرات، وذلك محاولة مني لوضع القضية أمام أصحاب القرار بحجمها الخطير، لكي تتحرك كل الأجهزة في حرب شاملة ضد تجارة المخدرات التي تستهدف دفع مصر، بل والأمة العربية كلها، في دائرة الموت.

والحل.. هو إعدام كل من له صلة بهذه التجارة الكافرة الفاسدة المفسدة.

الإعدام.. لزارع المخدرات.

الإعدام.. لمنتج المخدرات.

الإعدام.. للمتستر على تجارة المخدرات.

الإعدام.. لتاجر المخدرات.

الإعدام.. لمهرب المخدرات.

الإعدام.. لمتعاطي المخدرات بعد فترة سماح لعلاجه.. وإذا رفض العلاج، فلا بد من إعدامه.

* * *

لماذا الإعدام؟

لأن في الإعدام رحمة بالمجتمع.

قال لي الدكتور مصطفى المنيلاوي.. إن مريض السرطان لكي يشفى من هذا المرض.. ولكيلا يموت.. لا بد من بتر موقع السرطان في الجسم.. لحماية بقية أعضاء جسد المريض.. ولكي يعيش.. البعض قد يرى في البتر قسوة.. ولكن في البتر رحمة.. حتى لا تترك الخلايا

السرطانية تنتشر في الجسد كله فتفنيه.

* * *

فيا أيها المشرعون..

ويا رجال القانون..

اعدموا هؤلاء الذين يريدون دفع المجتمع كله إلى دائرة الموت.

وجيه أبو ذكرى

* * *

(١)

وصل الشاب الوسيم إلى مطار القاهرة وهو في حالة إعياء شديد، يستند إلى فتاة جميلة، وعندما وصل إلى شباك الجوازات، وسلم جواز سفره؛ رأى ضابطُ الجوازات أمامه شاباً أصفر اللون، يفتح عينيه بصعوبة، تختفي حدقتاه في عينين صفراوين.. وسأله ضابط الجوازات:

ـ أنت «مبلبع» يا أخينا؟

ولم يرد الشاب.. وسقط على الأرض.. وحاولت الفتاة الجميلة الهروب.. مما أثار الشك.

عادت الفتاة.. فهي لا تعرف إلى أين تهرب؟

وتجمع الناس حول الشاب الذي سقط.. وجاء طبيب المطار لإسعافه.. وبعد فحصه أعلن أن الشاب قد مات.

* * *

قامت سلطات المطار بإرسال جثته إلى الثلاجة الخاصة بحفظ الموتى.. وبدأ استجواب الفتاة التي كانت معه..

ـ أنا زوجته، وكنت معه في رحلة شهر عسل في أوربا وآسيا.. زرنا باريس ولندن وبومباي، وعدنا إلى القاهرة، وأثناء العودة ظل زوجي يحتسي ـ في الطائرة ـ كل أنواع الخمور، حتى خرج من الطائرة يترنح ومات أمام

تسألني لماذا حاولت الهرب؟.. وأقول لك.. لم أحاول الهرب على الإطلاق، كيف أهرب وأترك زوجي؟.. ثم.. أين أهرب؟.. لقد أفزعتني المفاجأة.. فجريت بغير هدف أو اتجاه.

أثناء التحقيق، وصلت رسالة إلى الضابط من مباحث المطار تقول: «احجز الفتاة عندك أطول وقت ممكن»..

وبدأت تروي حكايتها مع هذا الشاب:

ـ هو.. كان يعمل مرشداً سياحياً في إحدى شركات السياحة الكبرى لمدة عشر سنوات، وفي السنة العاشرة من عمله التقيت به، كنت قد تخرجت من كلية السياحة، وذهبت إلى الشركة بحثاً عن عمل، وقابلني لأول مرة، وتقابلنا، وترددت عليه، ثم تزوجنا، كان يبحث عن الاستقرار العائلي الذي لم يشهده في كل حياته، وعندما تزوج استقر عائلياً وعاطفياً، وقرر العمل في الاستيراد والتصدير حتى يكون ثروة، بعدها يشتري باخرة بعدة ملايين، تجوب النيل من الشمال إلى الجنوب والعكس، تحمل سياح الدنيا لزيارة آثار الجنوب، ونقضي أياماً ممتعة في الباخرة وسط النيل.. كانت أحلامه السياحية كبيرة.

* * *

مرت ثماني ساعات وهي تتحدث، ولا تشرب غير الماء، وترفض أن تتناول أي طعام.. ثم دخل ضابط آخر إليها:

ـ زوجك.. مهرب مخدرات.

ـ ووقفت مذعورة.. ورفضت هذا الاتهام بشدة.

وعاد الضابط ينظر إليها نظرة اتهام:

ـ هل تودين معرفة أسباب موته؟

وانهارت وبكت . . وأعلنت رفضها لكلام الضابط .

ـ اسمعي تقرير الطبيب الشرعي .

وساد الصمت في الغرفة ، وتوقفت عن البكاء . . وبدأ الضابط يقرأ :

ـ «بتشريح الجثة ، عثرنا على كرات صغيرة من البلاستيك في معدة وأحشاء المتوفى ، يقدر عددها بثلاثين كرة صغيرة لا يزيد ارتفاعها على سنتيمترين ، وبداخل كل كرة مسحوق أبيض ، وبتحليله ، وجد أنه مادة الهيروين المخدرة . . وقد انفجرت إحدى هذه الكرات في معدة المتوفى قبل الوفاة بنصف ساعة ، فتفاعلت مادة الهيروين في جسده مما أدى إلى هبوط مفاجىء في القلب تسبب في الوفاة ، وتزن المواد المخدرة ـ الهيروين ـ التي عثرنا عليها في بطن المتوفى حوالي كيلو جرام واحد» .

وسكت . . ونظر إليها الضابط :

ـ اسمعي . . أنت أيضاً تحملين الهيروين في بطنك . . من الممكن إنقاذك قبل أن تنفجر كرة . . وبدلاً من الخروج إلى السجن ، ستخرجين إلى المشرحة .

جاءوا لها بسائل ملين قوي ، ودخلت الحمام مع حارسة من حارسات المطار ، وخرجت الحارسة تحمل ثلاثين كرة من كرات البلاستيك المحشو بالهيروين .

واستسلمت الفتاة الجميلة .

ولم يعد أمامها إلا أن تعترف .

* * *

نعم . . تعرفت عليه في شركة السياحة ، وبهره جمالي ، وبهرتني

وسامته، والسيارة الفاخرة التي يركبها، وخفة ظله، ونحافته، وتقدم لخطبتي، واعترضت أسرتي عليه.

ـ لماذا؟

ـ رفض أن يذكر شيئاً عن أسرته.. من أبوه؟.. من أمه؟.. هل له أشقاء؟.. كل هذا رفض الإجابة عليه.. وأمام إصراري تزوجنا.. وقضينا شهر عسل من أروع الأيام.. سافرنا إلى أوربا.. وعدنا بعد شهر..

ـ نعم.. كنت ألاحظ حدة في مزاجه، وضيقاً، وغضباً.. كان يخرج وحده قليلاً، يجوب بسيارته شوارع المعادي.. ثم يعود بعدها هادىء الطباع.. حتى إنني كنت أطلب منه الخروج ليستريح، وكانت حياتنا سعيدة، فكل الأماكن السياحية في مصر والعالم تحت أقدامي..

* * *

نعم.. بعد فترة سألته عن أسرته.. حاول أن يهرب من سؤالي.. ألححت في السؤال.. واستطعت أن أعرف منه حكاية أسرته الغامضة.

* * *

هو وحيد أبويه، توفى والده في العاشرة من عمره، وتزوجت أمه برجل آخر. كان يعتبره كوالده تماماً، يخشاه، ويحترمه، بل وينادیه بنفس النداء الذي كاد يحرم منه بعد وفاة والده، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره حدث أمر مذهل.. لقد جاء مأذون ليعقد قران أمه على الرجل الذي عاشت معه حراماً ست سنوات.. كانت مفاجأة زلزلت كيانه.. وسأل أمه عن سنوات الحرام الماضية؟ فتوسلت إليه أن يسكت ولا يسأل كثيراً.. وخرج من المنزل هائماً على وجهه.

ذهب إلى صديق له في حي الروضة، وعاش معه عاماً كاملاً، كان

يعمل بالمساء «جرسوناً» في المطاعم الصغيرة حتى يوفر ثمن معيشته، وفي الصباح يذهب إلى الكلية، حتى تخرج وعمل في شركة السياحة هذه، وكان يعمل فترة صباحية، يكسب كثيراً، ثم يعود إلى بيته الصغير الجديد، فيتذكر السنوات الست التي قضاهما مع والدته بعد وفاة والده.. وأثناء مشاهدته أحد الأفلام الهابطة في التليفزيون، شاهد أحدهم وهو يترنح ويقول إن الخمر أنسته همومه.

وبدأ يشرب الخمر..

وأكثر منها بشكل خطير..

وكان يذهب في الصباح إلى عمله ورائحة الخمر الكريهة تفوح منه، فأنذره صاحب الشركة بالاستغناء عن خدماته إذا استمر في تناول الخمر.

ولكن.. كيف يتوقف؟

يتناول حبوباً مخدرة، لقد سمع من أحد السياح بأن هناك قائمة بحبوب مخدرة، تذهب بصاحبها في غيبوبة طويلة، ينسى خلالها الدنيا وما عليها من بشر.

ووجد ضالته في حبوب مخدرة يطلق عليها «الفراولة» يسهل تناولها في أي مكان، حتى إنه يستطيع أن يستأذن رئيسه في كوب الماء الذي أمامه.. ويبلع أمامه واحدة من هذه الحبوب المخدرة مدعياً أنها أسبرين.

وحمل في جيبه هذه الحبوب، وأصبح مدمناً لها، حتى عادت لا تؤثر فيه، وهنا وجد ضالته في إدمان الهيروبين، فلقد أصبح خبيراً في كلّ أنواع المخدرات.

ولكن.. كان كل ما لديه، وكل ما ادخره، وكل ما يكسبه لا يكفي شم الهيروين الذي يحتاج إليه جسمه.

وأفلس الشاب الوسيم.

وذهب إلى تاجر المخدرات يقبل يديه في سبيل «جرعة» هيروين، وأمسك تاجر المخدرات بحقنة الهيروين وقال له:

ـ أليس هذا هو الدواء؟

ـ أرجوك.

ـ بشرط.

ـ موافق.

* * *

أعطاه جرعة الهيروين في الوريد.. وعقد معه اتفاقاً، فالشاب وسيم ويعمل في السياحة، أي أنه يتعامل مع السياح، كل ما عليه أن يغازل عواجيز السياح، ويذهب بهن في رحلة حول العالم، تشمل أفريقيا والهند وباكستان ثم أوربا، والعودة إلى القاهرة، وكل رحلة سوف تكلف ما لا يقل عن خمسين ألف دولار، وأخبره التاجر أنه سيجد مئات من السائحات يتمنين هذه الرحلة وبالمجان، وقال له التاجر:

ـ هذا هو المطلوب منك فقط، وسوف أعطيك ما تحتاج إليه من هيروين حتى تسافر، ويوم السفر سأعطيك الدولارات، ويوم العودة إلى القاهرة سأعطيك عشرة آلاف دولار أو ما يعادلها بالجنيه المصري.

ـ مما لا شك فيه أن هناك لغزاً.. فلا يعقل أن تدفع ستين ألف دولاراً.. في سبيل الترفيه عن سائحة عجوز.

ـ ليس لغزاً.. كل ما عليك أن تذهب بالسائحة إلى محل عاديات هندي في بومباي.. سأعطيك عنوانه.. وتطلب هدية للسائحة.. سيقدم لك عدة هدايا.. قل له إنك من مصر وتريد لخطيبتك أكبر فيل خشبي

بالهنـد كلهـا . . وسيسـألـك كم تدفـع . . قل له عشرة دولارات فقط . . وسأعطيك الدولارات العشرة وما عليك إلا أن تعطيه نفس ورقة الدولارات العشـرة التي سأعـطيهـا لك، ثم تتجه والسائحة إلى مكان في أوربا . . وتقضي أسبـوعـاً . . معهـا . . وعيناك على الفيل الخشبي . . ثم الحجز والعودة إلى القاهرة . . معها . . وقبل رحيل الطائرة اختلق عذراً . . ودعها تعد وحدها . . ثم احضر على الطائرة التي تليها .

ـ لماذا؟

ـ المبـاحث . . والجمـارك . . لن تشـك في امرأة مسنة . . تحمل هدية . . وقادمة وحدها إلى القاهرة . . ولكن وأنت معها . . ربما يساورهم الشك .

ـ إذن . . فالهيروين في الفيل .

ـ نعم في الفيل .

* * *

كل يوم، يذهب إلى التاجر، يأخذ احتياجاته من الهيروين مجاناً، ولأنه مجاناً، كان يتناول منه خمس مرات يومياً على الأقل .

بعد شهر من هذا الاتفاق، سقطت في كمين وسامته سائحة أمريكية تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، جاءت في رحلة لزيارة آثار مصر لكي تنسى زوجها الذي توفى منذ شهر تقريباً، وعرض عليها الرحلة، وأسعدها العرض . . فلقد أعادها إلى الوراء عدة سنوات ـ كما قالت له ـ ولم تكن تحلم بمغامرة عاطفية كهذه ومع شاب وسيم، وكانت تنادية بفرعوني الصغير .

وقام معها بالرحلة، واشترى الفيل الكبير، وأحس خلال وجوده في

مجرد إحساس .

ثم سافر من بومباي إلى أبيدجان على ساحل المحيط ، ونزلا في قرية سياحية ضخمة في عاصمة كوت دي فوار، ومعهما بالطبع الفيل الهندي الخشبي ، وتركا الغرفة ، ونزلا إلى حمام السباحة في الفندق ، وتركا الفيل في الغرفة ، وفي الحمام جاء له رجل أفريقي ، وهمي في أذنه :

ـ هل هناك رجل عاقل . . يترك ثلاثة ملايين دولار وينزل إلى حمام السباحة مع عجوز شمطاء .

ـ من أنت؟

وتركه الرجل وانصرف ، وخرج من حمام السباحة مسرعاً ، وذهب إلى الغرفة ، ووجد الفيل فاستراح .

إذن . . الـرجل يسير في رحلة طويلة في حراسة سرية من أعضاء حكومة المخدرات القوية .

اتجهوا . . الشاب الوسيم ، والأمريكية العجوز، والفيل من أبيدجان إلى باريس .

وفي باريس حجز مكانين على الطائرة المصرية .

ولحظة الإقلاع . . ادعى أنه نسي جواز سفره في الفندق . . ووعدها بالعودة على الطائرة الثانية . . وأصر على سفرها وحدها بالفيل ، خوفاً من عدم وجود أماكن كافية على الطائرة التالية .

وجاءت إلى القاهرة ، وعبرت جمارك القاهرة بالفيل .

وفي اليوم التالي ، جاء الشاب الوسيم ، واتجه إلى الفندق التي تقيم فيه ، ووجدها حزينة .

ـ ماذا جرى؟

سرقوا الفيل من غرفتي.

وسقط الشـاب مغشياً عليه.. لن يرحمه تاجر المخدرات.. ولن ترحمه حكومة المخدرات العالمية القوية.

* * *

ذهب إلى تاجر المخدرات يروي له ما حدث وهو يستمع إلي بانتباه شديد، وأقسم أن هذا ما حدث، ثم بكى لأنه فشل في أول عملية يقوم بهـا، ووضـع تاجر المخدرات يديه في جيبه وأخرج عشرة آلاف دولار. وألقاها أمام الشاب الوسيم:

ـ هذا هو حقك..

ـ إذن.. أنت الذي سرقت منها الفيل.

ـ لست أنا بالتحديد، ولكن منذ أن أخذت الفيل من بومباي، وهو في حراستي حتى استقر في القاهرة.

ـ وأين هو؟

ـ في عروق شباب مصر الآن، أو هو في الطريق إلى عروقهم.

ـ إذن اعطني جرعة قوية تزيل هذا التوتر.

* * *

نجحت أكثـر من عملية لتهـريب هذا المسحـوق أكثر من مرة.. بواسطة الشاب الوسيم، والسائحة الأمريكية، والعاديات الخشبية الهندية، أو الباكستانية.

وفي شهـور قليلة، أصبـح الشـاب الوسيم من الأثرياء.. ويركب السيارة المـرسيدس، ويمتلك شقة في المهندسين، ويشتري وجوده في

ولكن . .

يبدو أن الشرطة الدولية قد اكتشفت هذه الجولة ، لقد تم القبض على سائحة أمريكية قادمة من أثينا ومعها «وشاح باكستاني» جميل مطرز بأحجار شبه كريمة، لونها أزرق، وكانت هذه الأحجار عبارة عن مخابىء «للهيروين» . .

أو ربما أحس رجل جمارك القاهرة أن «الأحجار شبه الكريمة» كثيفة بشكل لافت للنظر على الوشاح .

وتم القبض على السائحة الأمريكية .

وروت أحداث الرحلة بالكامل . .

وأصرت أنها لا تعرف شيئاً عن المخدرات .

* * *

في أثينا جاء للشاب الوسيم تليفون من مجهول، يتحدث اللغة الانجليزية، وأخطره بضرورة السفر إلى باريس، وعدم العودة إلى القاهرة، فلقد تم القبض على السائحة الأمريكية .

وبقي في باريس أسبوعاً . . بعدها قرر العودة إلى القاهرة .

وفي المطار تم تفتيشه تفتيشاً دقيقاً .

ثم بدأ استجوابه . .

قال إنه يعرف السائحة الأمريكية، وإنها أغرته برحلة فاخرة حول العالم، وإنها كانت تنفق عليه بسخاء، وكان المفروض أن يعود معها، ولكنه أحس بقرف منها، ومن نفسه، فتركها تعود وحدها إلى القاهرة، وقد أدى عدم عودته معها إلى خلاف حاد بينهما .

ولما سألوه عن الوشاح . . روى كيف اشترته من أحد محلات الملابس الفاخرة في كراتشي ، وأنها طلبت منه أن يضعه في حقائبه ، وفعلاً وضعه في حقائبه خوفاً على هذا الوشاح المرصع بالأحجار شبه الكريمة ، وفي أثينا تركه لها .

وأبدى الشاب الوسيم دهشته من السؤال عن الوشاح ، ثم استنكر بشدة عندما علم أن الوشاح مرصع بمخابىء للهيروين . . وأضاف :

ـ تاجرة مخدرات قذرة .

ودخل الشاب الوسيم القاهرة ، ووجد خطاب فصل من الشركة السياحية .

تسألني : وهل تزوجته قبل هذه العملية أو بعدها؟ . . أقول لك لقد تم زواجي منه قبل هذه العملية بعام تقريباً ، ولم أكن أعلم أنه مدمن ، كما لم أكن أعلم أنه مهرب مخدرات خطير .

* * *

عاد إلى البيت بعد فصله من عمله ، وروى لي ما حدث ، واتضح أنه مهرب مخدرات . . فمكسبها خطير . . وثرت عليه ثورة عارمة وبكيت وخشيت على الطفل الموجود بأحشائي ، واتهمته بخداعي . . ولكن لم أعلم ـ بعد ـ أنه مدمن هيروين ، وقدم لي حبوباً مهدئة حتى تهدأ هذه الثورة ونرسم مستقبلاً جديداً للطفل القادم ، وتناولت الحبوب المهدئة . . وطلب مني أن أنام . . حتى الصباح .

وفي الصباح استيقظت من نومي ، والصداع يكاد يقتلني ، فأسرع وجاء إلى بأسبرينتين . . وارتحت .

رويت له حلماً بشعاً ، كالكابوس .

حاولت أن أرفضها فلم أتمكن.

رويت له خطر هذا الكابوس، وهو يستمع بلا اكتراث، حاولت أن أثور عليه، ولكن قواي خانتني.. وبدلاً من مواساتي.. أو حتى علاجي من هذا الكابوس اليومي.. بدأ يتحدث عن مشروعات المستقبل، وكأن شيئاً من لم يكن.. وكأنه لم يستمع من زوجته مأساة تأتي لها كل ليلة..

* * *

قال إنه في حاجة إلى ثلاثة ملايين جنيه دفعة واحدة، ليقيم بها شركة سياحية ضخمة، يكون مديرها وصاحبها.

فأبديت له ملاحظة.. إن المشروعات التي تقام بمال حرام مصيرها الفشل.. وحذرته من إقامة هذه الشركة بمال مصدره المخدرات لأن الله لن يبارك فيها.

فقال:

ـ أبداً.. سيكون المال حلالاً، وسوف نجلب هذا المال الحلال معاً.

* * *

عاودني الكابوس.. الرجل البشع الذي يمسك بذراعي، وأنا لا أقوى على منعه، ثم يعطيني حقنة.. والغريب أنني أستيقظ أرى أثر الكابوس، أرى آثار الحقنة.

وذات يوم.. استيقظت من نومي أثناء الكابوس، وإذا بزوجي هو الرجل البشع، وإذا بالكابوس حقيقة.. إن زوجي يعطيني حقنة هيروين!.. وحاولت الثورة، وإذا به يقول بكل هدوء:

ـ لقد أصبحنا في الهم معاً.

ـ لقد كنت تتناولين قبل النوم حبوباً، وكنت أعطيك الهيروين وأنت تحت تأثير المخدر، ولقد استيقظت اليوم، لأن مفعول المخدر لم يعد يؤثر فيك.. أنا الكابوس.

* * *

لم أتمكن من الثورة.. لم أتمكن من الحوار معه.. وكل ما فعلته أن مددت له ذراعي ليعطيني الحقنة، لقد سمعت نداء من داخلي يطلب هذا السائل الملعون.

وأصبحنا في قيد هيروييني واحد.

ووافقته على إقامة الشركة السياحية.. ليصبح مهرباً كبيراً، لا يذهب مع سائحات في خريف العمر، بل يذهب معهن موظفون ينتقيهم بعناية.

كان في حاجة إلى خبطة مخدرات واحدة لحسابه.. بعدها يصبح مليونيراً.

وكان قد أصبح خبيراً بتجار المخدرات في العالم، وبكل أصول اللعبة، وكان يخشى رجال مكافحة المخدرات بعد حادث السائحة الأمريكية، فربما لم يقتنعوا بها.

* * *

وسافرنا معاً إلى بومباي..

وهناك أعدّوا لنا تلك الكرات المحشوة بالهيروين.

وقبل قيام الطائرة بلعت ثلاثين كرة، وبلع زوجي ثلاثين كرة، واتجهنا إلى لندن.

وفي فندق هيلتون لندن أنزلنا هذه الكرات.

وقضينا أسبوعاً كاملاً في لندن.. تناولنا خلاله جزءاً من كرة هيروين.

يوم السفر.. أغلق زوجي كرة الهيروين التي تناولنا منها، ويبدو أن إغلاقها لم يكن محكماً إحكاماً شديداً.. وأتصور أن هذه الكرة هي التي انفجرت في أمعائه، وأدت إلى الوفاة.

تسألني عن الطفل الذي كان في أحشائي، لقد رفضت أن يكون طفلي ابناً من مدمن ومدمنة.. لذلك جئنا بطبيب وأسقط طفلي من أحشائي.

أما الطبيب فهو «فلان» ويعمل مع تجار المخدرات، لكل الأغراض: لإسقاط الحوامل، لإخراج رصاصة شرطة من جسد مهرب، لعلاج مطلوب القبض عليه.

إن عالم المخدرات ـ ليس كلمة تجار مخدرات ـ ولكنه عالم يتضمن كل من باعوا ضمائرهم من السلطة والمهنيين وغيرهم.

وسأروي لكم كل ما أعرفه عن هذا العالم..

ولكن قبل الرواية.. كيف عرفتم أننا نحمل في أحشائنا كرات الهيروين؟

* * *

ورد الضابط:

ـ إنه منذ القبض على السائحة الأمريكية، وزوجك الوسيم، وكل من حوله تحت المراقبة في الداخل والخارج.

ثم سكت الضابط قليلاً:

ـ لقد كلفتمونا كثيراً.. آلاف الدولارات، وآلاف الشباب الذين

ذهبوا ضحية ما جاء به زوجك وعبر به الحدود.

* * *

وركبت الفتاة الجميلة سيارة الشرطة في طريقها إلى المحاكمة، ثم إلى غياهب السجن، أو حبل المشنقة.

* * *

(٢)

هذه القصة، ليس لي فضل في البحث عنها، لقد جاءت لي الزميلة نوال مصطفى المحررة بـ «الأخبار» برسالة من شاب يقيم في إيطاليا، وقالت: إن صاحبها يود نشرها، وكان قد أرسلها إلى الدكتور جمال ماضي أبو العزايم، وقرأت الرسالة، وقررت أن أقدمها للقراء بقليل من التصرف.

مرة أخرى أشكر صاحب هذه الرسالة، وأرجو له التوفيق من كل قلبي.. ولنترك صاحب التجربة يتحدث..

«و. أ»

* * *

كارلو ـ جنوب إيطاليا.

هذه الرسالة.. أكتبها لكل الناس.

أكتبها لكل شاب سقط في كمين الإدمان، ولا يعرف كيف يفك الشباك التي التفت حوله.. فمن الممكن أن يفلت من الشباك، وينطلق حراً من سجن الإدمان.

أكتبها لكل شاب تغازله المخدرات، ويغازلها ويقف على أبوابها، حتى يقطع هذا الغزل.

أكتبها لكل والد يخشى على ابنه من الإدمان، حتى يتجنب ابنه

مرض الموت..

أكتبها لكل قضاة مصر.. وأستحلفهم بالله أن يسرعوا بقطع رؤوس الأفاعي، وأعني بهم تجار السموم، فإنهم يقتلون في كل لحظة عشرات الأسر، ويخربون أجمل ما في مصر.

ولا أكتبها لتجار المخدرات، فهم في واد سحيق من الكفر والإجرام، فقدوا الضمير، لا تحركهم رسالة أو شاب يتلوى ألماً، أو فتاة تفقد شرفها من أجل الهيروين، أو فتى يموت، لقد تحولوا إلى أصنام يجب تدميرها.

* * *

أنا الآن شاب في الثلاثين.. أملك تجربة لكل البشر.. سأرويها من بدايتها.. منذ أن فتحت عيني للحياة، وجدت نفسي طفلاً محروماً من رعاية الأب، حيث تركني والدي وتزوج امرأة أخرى غير أمي، وعشت طفولتي، مع أمي وأخواتي البنات الثلاث، حاولت أمي أن تعوضني عن أبي فلم تتمكن.

أشعر الآن بمعنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإذا كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

ربما بدأت مأساة شبابي منذ تركنا والدي وتزوج بأخرى.

هذه الظروف الاجتماعية، تدفع بالطفل إلى أمور غريبة، البعض قد يميل إلى التدمير، البعض الآخر يميل إلى الانطواء، ولقد اخترت الخيار الثاني.

ولكن خرجت من هذا الانطواء على قصة حب.. لقد أحببت فتاة حباً كبيراً، فأنا صغير، وبلا أية تجارب، وإذا بفتاة تخرجني من عزلتي وتقتحم عليّ حياتي، وتشعرني برجولتي مبكراً.

في ذلك الوقت كنت طالباً في الثانوية العامة، ورويت لأمي حكايتي مع هذه الفتاة، وقررت الزواج منها، كانت أمي لا ترفض لي طلباً، فوافقت على زواجي منها.

* * *

حصلت على الثانوية العامة وأنا زوج لفتاة أحلامي.

عاشت مع أسرتي في غرفة متواضعة جداً، هي كل ما أستطيع أن أقدمه لها.

كانت أمي تنفق علي وعلى زوجتي.

ثم أخبرتني زوجتي أن في أحشائها طفلاً قادماً.

وهنا قررت العمل، والانتساب إلى كلية الآداب قسم الفلسفة.

* * *

كانت حياة شاقة، ولكني كنت سعيداً بها، أخرج في الصباح الباكر، ربما بحثاً عن عمل، ودائماً أجد العمل، أي عمل، وأعود في المساء وأعطي لأسرتي ما كسبته، وأجلس أستذكر دروسي.

وجاء الطفل.. ولكن مهما عملت.. فلقد كانت حصيلة اليوم ضئيلة لا تكفي كل احتياجات ومطالب زوجتي.

وبدأت الخلافات.

وكانت الخلافات بسبب ضيق العيش، والسكن مع الأسرة.

كانت تريد حياة أرغد، ومالاً أوفر.

وكنت أقول لها:

ـ الصبر.. وسوف نصبح أغنياء.. إن الله مع كل من يعمل ويجدّ في عمله.

ولكن زوجتي لم تكن تعلم معنى الصبر.

وزادت الخلافات مع الأيام.

وارتفعت حرارتها مع زيادة مطالب طفلي الغالي.

وأصبحت الحياة مستحيلة بين شاب فقير يعمل، وبين الزوجة التي لا تعرف للصبر طريقاً.

وانفصلنا.

أخذت الطفل وذهبت به إلى أمها، وبقيت مع أسرتي.

وأخذت أفكر في كل حياتي السابقة.. وجدت أن المعنى الوحيد لمسيرة هذه الحياة.. هو طفلي.

وفكرت في بداية جديدة.. فلا بد أن أغير حياتي كلها، ولا بد من تغيير العمل والمكان.

ووجدت عملاً متواضعاً في إحدى الدول العربية، ولم أتردد في قبوله، وسافرت فوراً.

أقول لكم الحق:

لقد سافرت بحثاً عن الثراء، والعودة إلى الوطن، ومعي ثروة تجذب زوجتي إلي مرة أخرى، وتعود، ونجمع الشمل في شقة صغيرة جميلة، هي وأنا وطفلي الصغير.

وبدأت أعمل وأدخر.. لم يكن الادخار كافياً، لأن المرتب كان يكفي فقط الغذاء والسكن، ولكن كنت أحرم نفسي من الغذاء، حتى أوفر في البداية مسكناً لزوجتي التي سوف تعود.

ثم جاءتني رسالة من القاهرة كالصاعقة..

قالت الرسالة: إن مطلقتي قد تزوجت من عجوز عربي، يبدو أنه

ثري . . وإنها ذهبت معه إلى وطنه، وتركت الطفل مع أمها.

* * *

بعد هذه الرسالة . . أحسست بالضياع . . فلقد عانيت، وقاسيت، وجعت، وتشردت، وبكيت من أجل أن أحقق هدفاً، وإذا بهذا الهدف، يتحطم، وتتزوج أم ابني.

وعشت أياماً صعبة بلا هدف . . حتى جاءت رسالة من صديق كنت أعمل عند والده، ويعلم أخلاقي وأمانتي جيداً. سألني في رسالته الأولى عن ظروفي، فرويتها له . . وكانت الرسالة الثانية تطالبني بالعودة إلى القاهرة، وأشاركه في سيارة نصف نقل وأعمل عليها سائقاً، وسوف تُدر علي ربحاً أكبر مما أربح في الغربة. فأرسلت له لأخبره أنني لا أملك نصف ثمن السيارة، فكانت الرسالة الثالثة، حيث عرض عرضاً سخياً، هو سيشتري لي السيارة، وأنا أعمل عليها سائقاً، ولي مرتب كل شهر، ونصيب من أرباحها مناصفة بالإضافة إلى المرتب.

وقبلت هذا العرض الوفي السخي.

وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل جروحاً قديمة لم تندمل بعد لأحداث لم يكن لي يد فيها.

* * *

أحسست بعد عدة أسابيع من عودتي للقاهرة أن أبواب المستقبل المبهر بدأت تتفتح.

لقد كنت أقود السيارة بنفسي، وأحجز مبلغاً ضئيلاً يكفي احتياجاتي وأعطي الباقي لصديقي، حتى أسرع بتسديد نصف ثمن السيارة.

أثناء قيادتي للسيارة . . كنت أحلم . . نعم كنت أحلم . . نعم كنت

أحلم . . كنت أحلم مثلاً أنني أملك شركة نقل كبرى . . كنت أحلم أنني أملك معرضاً ضخماً للسيارات في القاهرة .

وذات يوم . . سألني سائق عن سيارة نصف نقل يشتريها .

وبالمصادفة وجدت له سيارة .

وحدث أمر غريب . . لقد أعطاني السائق «المشتري» مبلغاً من المال ، وأعطاني «البائع» مبلغاً آخر .

فأصبحت هذه هوايتي . .

فكنت في أوقات فراغي أمر على معارض السيارات ، وأعرف منهم ما لديهم من سيارات ، وأرسل لهم المشترين ، وأحصل على «عمولتين» من البائع والمشتري .

وأصبحت الأموال كثيرة في يدي .

وأصبحت أملك السيارة التي أقودها ، بعد أن سددت ثمنها بالكامل لصديقي ، وبعد أن كسب أرباحاً كثيرة من إدارتي للسيارة ، وشكرني وتمنى لي كل توفيق .

* * *

حدث أمر هام في حياتي . .

لقد توفى والدي ، وترك لي شقة كبيرة بالدور الأول في أرقى أحياء القاهرة ، وحول الشقة حديقة واسعة .

وعندما تسلمت الشقة والحديقة . . لم أنتقل إليها ، بل عشت في الشقة المتواضعة ، في الحي المتواضع الذي أسكن فيه ، وقررت أن أحقق بهذه الشقة وهذه الحديقة أحلامي .

قررت تحويل المكان إلى أعظم معرض للسيارات في مصر كلها ،

مستغلاً الحديقة، والحي الراقي.

لن أطيل كثيراً..

كان شعاري: «قليل دائم خير من كثير متقطع».

وأن القناعة ـ بصدق ـ كنز لا يفنى.

وأن الأمانة في التجارة أقصر الطرق للنجاح.

وأن الشرف هو عمود العمل الناجح المستمر.

وأن ضمير المسلم هو أعظم نظرية تجارية في التاريخ.

بهذه المبادىء.. كبر المعرض في شهور، وكبرت معه، وبدلاً من عرض سيارات غيري.. بدأت سياراتي تزاحم سيارات الآخرين، وإذا بالضمير والشرف والأمانة والقناعة والتسامح والابتسامة هي الطريق السريع للنجاح.

ونجحت، وأصبحت أملك الآلاف، واقتربت من الملايين.

وكنت أصلي وأسجد لله حمداً وشكراً..

لقد حققت كل أحلامي، ولم يتعد عمري الخمسة والعشرين عاماً.

* * *

أصبحت نجماً من نجوم القطاع الخاص، ودخلت في أزقته وشوارعه الخلفية، وللأسف الشديد، فإن القطاع الخاص في مصر يحمل في داخله بذور فنائه، فهو قطاع غبي، يكسب كثيراً إلى حد الجنون، وينفق ما يكسب على ديكور قصر، على خصر راقصة، على مائدة قمار، حول سهرة مجون، على المخدرات.

أصبحت قريباً من أصحاب الملايين، نسهر في الفنادق الكبرى، ننفق فيها بسخاء، نتحدث عن اقتناء أحدث السيارات، نتمنى مجالسة

الفنانات، حتى ولو دفع الواحد عليه آلاف، لتعرف أسماء الراقصات ومحل عملهن وإقامتهن وأرقام تليفوناتهن.

أصدقائي كانوا من تجار السيارات والمقاولين وتجار الذهب، وأصحاب مصانع الملابس الجاهزة ومحلات الديكور والمطاعم.

ذات يوم اقترحت عليهم التبرع لبناء مدينة للطلاب بالجامعات، حماية لرأس المال، وسخروا مني، وكأنني أمزح.. قلت لهم:

ـ ليتنا نتبرع للخير بما يعادل ما ننفقه على سهرة واحدة شهرياً.

وضحكوا من سذاجتي.. لذلك.. أقول لهم:

ـ احذروا حمل بذور الفناء.

عشت معهم.. ولكن بحرص.

شاركتهم في الكثير.. إلا المخدرات.

* * *

وذات يوم.. وكنا في فندق كبير.. تبدأ السهرة في كافيتريا الفندق، وإذ بي أمام فتاة جميلة جداً، ومعها طفل لا يتجاوز الأعوام الثلاثة، فوجئت بجمالها، وخفق قلبي لها، وبدون أن شعر وجدت نفسي أتجه إليها، وأحاول التحدث معها.

قلت لها:

ـ الآنسة ميرفت.. أليس كذلك.

وقالت لي: إنها ليست مصرية، إنما هي لبنانية، جاءت إلى القاهرة هرباً من النار والدخان والقتل على الهوية، جاءت بعيداً عن مسرح الصراع اللبناني.

وقدمت لها نفسي، وعرضت عليها أن أمر عليها في الصباح لكي

تشاهد معي معالم القاهرة، وكم كانت سعادتي عندما وافقت على ذلك.

أنا إنسان عاطفي.. أحببت الفتاة اللبنانية قبل أن أعرف من هي، وقررت الزواج منها، فهي تملك وجهاً بريئاً جميلاً لم أشاهده من قبل، وأخذتها من الفندق، وشاهدت هي وابنها الصغير معالم القاهرة، وقضيت يوماً من أسعد أيام العمر.

هي سيدة مات زوجها في الصراع الدائر في لبنان، وترك لها هذا الطفل الصغير، كما ترك لها ثروة صغيرة، وتعيش مع أسرتها في بيروت.. وكلما يشتد الصراع، وكلما يزداد نشاط القنابل والقذائف على مقربة منها، تأخذ طفلها وتأتي إلى القاهرة، لتستريح ثم تعود إلى بيروت.

واستمر اللقاء يومياً، ولمدة شهر.

وجاء يوم الرحيل إلى بيروت.

وعرضت عليها الزواج، فطلبت التأجيل حتى أعرف عنها كل شيء، فقلت لها: يكفيني ما أعرفه.

* * *

كنت أتصل بها تليفونياً كل يوم، كنت أرجوها قبول عرض الزواج والإقامة هي وابنها في القاهرة.

وعادت إلى القاهرة، وانتظرتها بالمطار، وذهبت بها وطفلها إلى الفندق.

وفي الصباح اتصلت بها، فطلبت مني أن أقضي معها اليوم في شرفتها، وقبلت العرض، وفي الشرفة وافقت على الزواج والإقامة في القاهرة، وشعرت بالسعادة، إلا أنها أخبرتني أنها تتعاطى هيروين.

ـ لماذا؟!

ـ ربما لأنه متوافر في لبنان وبأرخص الأسعار.

ـ ألهذا السبب تتعاطينه؟!

وابتسمت الفتاة الجميلة ابتسامة ساخرة، ثم تحول وجهها إلى ثورة غضب عارمة، وقالت من عمق قلبها:

ـ عندما يقترب منك الموت كل ثانية، وعلى مدى سنوات، فإنك تتمنى أن تذهب في غيبوبة لا تفيق منها إلا على موسيقى السلام. عندما تسقط القنابل على المسكن المجاور لك وترى الجيران والأصدقاء موتى تحت الأنقاض، تتمنى الغيبوبة. عندما تسمع مرور قذيفة مدمرة ولا تعلم أين تستقر.. هل في بيت الجيران؟.. هل في بيتك؟.. هل في ابنك؟.. هل في جسدك؟.. فأنت في حاجة إلى غياب كامل عن الوعي. عندما تسير في الطريق، وتوجه إلى قلبك فوهة مدفع، وأنت تعلم أنه بضغطة بسيطة على الزناد سوف ينطلق الرصاص، وتموت قتيلاً بلا سبب، فأنت في حاجة إلى الغيبوبة. عندما يتملك منك الخوف في كل لحظة، فأنت في حاجة إلى الغيبوبة. عندما تفقد عزيزاً. عندما يتمزق وطنك أمامك. عندما تتشرد أسر، فأنت في حاجة إلى غيبوبة.. لا تسألني لماذا تعاطيت الهيروين؟

وتركت السيدة اللبنانية في الشرفة، وخرجت.

* * *

لم أتمكن من الفرار من حبها.

اتصلت بها في منتصف الليل.

عرضت عليها العلاج، فعرضت على التعاطي.

كان حبي لها كبيراً.. ورغبت في مشاركتها ـ ولو على سبيل

التجربة ـ جرعة هيروين، وكانت البداية..

اتفقنا على الزواج، وبدأنا نخطط للمستقبل.. أتوقف أنا عن التعاطي، وهي تدخل إحدى المصحات، وتخرج منها وقد تخلصت نهائياً من الإدمان، ونتزوج.

وكانت تتناول خمس مرات في اليوم، وأنا كذلك.

وعشت شهراً نتناول خمس مرات في اليوم الواحد الهيروين.

وسافرت على أن تعود.. لنتزوج.

اشتقت لحبيبتي التي في بيروت.

كنت أتصل بها كل يوم تقريباً.

وكانت مكالماتها تكلفني حوالي خمسة آلاف جنيه شهرياً، نتحدث في المستقبل.

وسأروي لكم مأساة دامية، كانت تحدث يومياً، خلال مكالماتي لها كنا نتحدث عن ضرور العلاج من الهيروين، وأثناء الحديث أشعر أنني في حاجة إلى جرعة.. وأصبحت خبيراً في تعاطي هذا المسحوق اللعين في الوريد، ونحن نتحدث في التليفون عن العلاج والشفاء منه.. والغريب أنها كانت تبادلني التعاطي في نفس الوقت.

لم تعد الجرعات الخمس اليومية تكفيني، وأصبح وريدي يلتهم في اليوم عشر جرعات.

كنت أستيقظ، لأتعاطى فوراً الهيروين، فبدونه لا أقوى على رفع سماعة التليفون للسؤال عن أحوال معرض السيارات.

ووصلت إلى حالة مؤسفة من حالات الإدمان.

لكي أستيقظ.. لا بد من جرعة.

لكي أخرج . . لا بد من جرعه .

لكي أذهب إلى عملي . . لا بد من جرعة .

لكي أتحدث مع أي أحد . . لا بد من جرعة .

لكي أنام . . لا بد من جرعة .

أحياناً . . أحياناً قليلة جداً كنت أستيقظ من حالة الغيبوبة وأنا أشعر بالمهانة ، وأشعر أن كرامتي أصبحت تحت نعال كل البشر ، وأن وجودي في الدنيا لا قيمة له ، وأن المستقبل مظلم ، نهايته القبر ، بل كثيراً ما تمنيت الشفاء ، أو الموت العاجل .

وفتـرت علاقتي بحبيبتي التي في بيروت ، فالهيروين ، يقتـل في الإنسان أشياء كثيرة منها الحب . . ونسيت ابني الذي كبر ، ونسيت أمي وأخواتي البنات .

* * *

انتشـر خبـر إدمـاني بين المحيطين بي . . كثرت انفعالاتي ، وقل دخلي . . كنت أنفق عشرة آلاف جنيه شهرياً على هذا المسحوق اللعين ، وبدأ بريق اسمي في سوق السيارات يخفت تمهيداً للتلاشي الكامل . . لقد انهـارت ذاكرتي . . وبدأت أخسر ، وكثيراً ما حاولت أن أخرج من سجن الهيروين فلم أتمكن .

* * *

خسرت كل شيء . . لم أعد أملك سوى حطام المعرض ، وغرقت في الديون ، وجاءتني فكرة أن أبحث عن شريك ، أسدد بما يدفعه ما على من ديون نظير امتلاك نصف المعرض ، وجاءني الشريك ، ووضع كل ثقته في ، وحاولت أن أحقق أي أرباح ، ولكني لم أتمكن ، فالفشل والهيروين

وجهان لعملة واحدة.

كم تمنيت الموت أو الخروج من سجن الهيروين.

شريكي يطالبني برأس المال.

تاجر الهيروين يطالبني بعدة آلاف.

جسدي في حاجة إلى كمية كبيرة من الهيروين يومياً.

وبحثت عن حل.. ووجدته.

* * *

نشرت إعلاناً عن قيام شركة لتوظيف الأموال، في تجارة السيارات وأعلنت عن أرباح شهرية مغرية تصرف لصاحب رأس المال كل شهر.. كنت أريد أن أحقق هذه النسبة، وخاصة أن رأس المال يدور بسرعة في تجارة السيارات.

بعد الإعلان مباشرة، انهمرت علي أموال الناس، ولقد دهشت لذلك.. لقد أحسست أن شعبنا طيب، بل ساذج، هو لا يبحث عن ضمانات بقدر هذا المرتب الشهري ومدى استمراره، وهو يثق في الكلام المعسول أكثر من ثقته في الأرقام والحقائق.. لقد جمعت أكثر من ربع مليون جنيه في أقل من أسبوع، سددت ديوني، وسددت تاجر المخدرات.

أود هنا أن أذكر حقيقة عن «تجار السيارات»، معظم هؤلاء كونوا ثرواتهم من تجارة المخدرات والهيروين بصفة خاصة، أذكر أن أحدهم استطاع أن يعبر بكيلو جرام هيروين إلى داخل مصر، فأصبح مليونيراً.. بعدها رفع شعاراً غريباً اسمه «تبييض المال»، أي أنه يقيم مشروعاً بأرباح المخدرات الخيالية.. ودائماً ما يقيمون معارض للسيارات.. وأنا أعرفهم واحداً واحداً.

المهم . . لو كنت أردت جمع عدة ملايين من الناس، لاستطعت جمع ما أريد، لن يكلفني ذلك سوى إعلان في الصحف، وتحديد نسبة أرباح شهرية وتتدفق الأموال كالهدير.

انتظمت في صرف الأرباح وتعاطي الهيروين.

وذات مساء . . شاهدت في التليفزيون برنامجاً عن إمكانية العلاج من الهيروين.

وببقايا من أموال الناس . . دخلت المستشفى وكلي أمل في الشفاء، وعانيت كثيراً، وعشت عدة شهور في هذا المستشفى، وكنت في رعاية كبيرة من العاملين فيه.

وخرجت . . إلى حد ما سليماً . . ولكن في داخلي نداء خفياً ينادي على الهيروين . .

وأحسست أنني لو بقيت في نفس المجتمع الذي كنت أعيش فيه، فسوف أعود للسم اللعين.

قررت الهجرة.

واخترت إيطاليا.

* * *

وصلت إيطاليا، ومعي القليل من الدولارات، وكان ذلك في شتاء عام ١٩٨٦، بحثت عن عمل، أي عمل فلم أجد، حتى التقيت بشاب مصري يبيع الزهور للسيارات التي تقف في الإشارات، وبدأت أفعل مثلما يفعل، وكانت إهانة لي عندما أعطاني قائد السيارة مبلغاً من المال ولم يشتر مني زهوراً، إذن هي طريقة للتسول، وبدأت انظر إلى الوجوه التي كانت تأخذ الزهور ولا أقول تشتريها، كلهم يعاملونني على أنني متسول!

وكم نظرت إليهم بعيون دامعـــة، وكم بودي أن أروي لهم كل ما حدث لي، وأصرخ فيهم: أنا ضحية الإدمان.

في الشتاء، الجو قارص في روما، وليس لي مكان أبيت فيه، فكنت أبحث عن الدفء فلا أجده، عن الرحمة فلا أجدها.

بعد عدة شهور.. وجدت عملاً في مطعم أسماك، وسعدت بهذا العمـل الجديد، فلم أعد أتسول بين السيارات، بل أصبح لي مكان له حوائط وسقف، وكان عملي في المطعم هو تنظيف كل شيء: الأسماك، والأطباق، والزجاج، والأرض، والأبواب.

* * *

ذات يوم.. هدني العمل، فشعرت برغبة ملحة في البكاء، فبكيت كثيراً.. بكيت شوقاً.

بكيت شوقاً للأم والابن والأخوات والوطن.

بكيت الحبيبة البعيدة التي لا تعلم عني شيئاً، ولا أعلم عنها شيئاً.

بكيت أن أصبح معدماً.. بعد ما كنت أصبح من أصحاب الملايين حلالاً.

بكيت عمري الذي انتزعه مني السم الأبيض أو البني.

* * *

وشعـرتُ بالحنين إلى زوجـة المستقبـل، إلى خطيبتي في لبنان، فاتصلت بها، ولكن التليفون لم يرد، وتذكرت أنني كنت أطلبها عند صديقة مصرية تقيم بجوارها، وردت الصديقة المصرية:

ـ لقد ماتت منذ أيام.. ماتت بسبب الهيروين!

ـ وبكت الصديقة..

(٣)

اتصل بي ضابط الشرطة في قسم الدرب الأحمر بالقاهرة وقال لي :

ـ احضر فوراً، فسوف تلتقي بمدمن قصته مثيرة للغاية، وهو مستعد أن يروي لك، وبصراحة شديدة أكثر الحكايات إثارة، وعنفاً.

* * *

في قسم الشرطة، التقيت به، شاب نحيل، غائر العينين، أصفر الوجه، طويل القامة، في حالة ذهول كامل.

ـ ما اسمك؟

ـ عصام --------

ـ عمرك؟

ـ ٣٥ عاماً.

ـ مهنتك؟

ـ كنت أسطى ميكانيكي، أستطيع أن أقوم بتصليح أسوأ موتوسيكل «دراجة بخارية» وأحوله إلى جديد تماماً.

ـ ومتى تركت مهنتك؟

ـ بعد أقل من عام من معرفتي بالماكس فورت.

ـ وماذا تعرف عن الماكس فورت؟

ـ محذر يسقط الإنسان نشاطاً كاذباً، ثم يقتله في النهاية.

ـ يا عصام، ما هي حكايتك؟

وبدأ عصام يروي قصته المثيرة للغاية، يرويها وفي نبرات صوته عفوية وصدق، ولا أدري.. هل أشفق عليه، أم أقسو عليه.. لنترك لكم الرأي الأخير.

* * *

توفي والده وكان عمره سبع سنوات فقط، وترك له أمه وشقيقته التي تكبره بعامين، وحزن على والده حزناً شديداً، فلقد كان يصحبه يومياً إلى مسجد الحسين، يستمع إلى القرآن الكريم، ويؤدي الصلاة ويشتري له من أمام المسجد ما يريده.

ولكن، بعد أن توفي العائل، أخذته أمه إلى ورشة جارهم ليتعلم حرفة، تغنيه عن أي سؤال، وكانت ورشة لتصليح الدراجات البخارية، وكان يعطي والدته ما يحصل عليه من قروش قليلة كل يوم، وفي نفس الوقت كانت أمه تعمل شغالة في المنازل، وبهذا وجد هذا البيت قوت يومه دونما حاجة إلى سؤال أحد.

وكان الصبي عندما يسمع المؤذن ينادي المسلمين إلى الصلاة يُهرَعُ إلى المسجد.. وكان صاحب الورشة كريماً معه، فهو يتركه بل يشجعه على تأدية الصلاة.

وكبر الطفل، وصار رجلاً، وتزامن ذلك مع وجود دراجات بخارية كثيرة في القاهرة، تحتاج إلى تصليح، واشتهر عصام بأنه أمين، وأنه يقوم بإصلاح الدراجات البخارية بإتقان شديد، وضمير حي، وأصبح دخله في اليوم الواحد لا يقل عن خمسين جنيهاً، وطلب من والدته أن ترتاح من

العمل . . فهو يستطيع الآن أن ينفق على البيت، وينفق بسخاء. وعندما تقدم أحد العمال للزواج من شقيقته، قام بتجهيزها بعدة آلاف من الجنيهات، فلقد كانت أمه تدخر له كل قرش أعطاه لها.

* * *

ذات يوم، طلبه صاحب الورشة لأمر هام، وكان هذا الأمر هو آخر ما يتوقعه، إنه يعرض عليه شراء الورشة، فالرجل قد تعب. وهو أحق إنسان بها. واشتراها بكل ما ادخره من مال، وأصبح الأسطى وصاحب الورشة.

كانت الدراجات البخارية التي تحتاج إلى إصلاح كثيرة، فلم يعد لديه الوقت ليذهب كعادته لتأدية الصلاة، بل لم يسمع صوت المؤذن، ولم يعد ينتظره.

وارتفع دخله كثيراً.

وأصبح الشاب الثري حلم فتيات الحي الشعبي الفقير.

وتقدم إلى خطبة الفتاة التي أحبها.

وقرر أن يشتري لها شقة في حي آخر.

وعاش سعيداً. . مع أحلام المستقبل.

* * *

في أحد الأيام، جاء شاب كان قد أصلح له دراجته البخارية. وقال له:

ـ لقد أعدت دراجتي جديدة، لذلك سأجعلك تقضي معي سهرة لا تحلم بها أبداً، مكافأة على إتقان عملك.

وذهب معه. .

ودخلنا شقة في باب الشعرية، فتحت لنا صاحبة الشقة الباب،

واسمها روحية، امرة ضليعة، بضة، مليئة الجسد، شبه عارية، وفي البيت فتيات ورجال. . وكان المشهد جديداً عليه، ومثيراً في نفس الوقت.

وجاءت إليه فاطمة، واحدة من فتيات روحية، وطلب منها الصديق أن تعطي عصام حقنة ماكس. . وقال له:

- إن هذه الحقنة ستجعلك في قوة الحصان وأنت في أشد الحاجة إليها الليلة. . وشجعه على ذلك أن صديقه سرعان ما مد ذراعه لها، وأعطته حقنة الماكس، وهلل سعيداً بها، فما كان من عصام إلا أن مد هو الآخر ذراعه لها، وأخذ الحقنة التي رفعت عنه الخجل، وأصبح يسلك مع فاطمة سلوكاً وحشياً، وقضى الليلة في شقة روحية بباب الشعرية، وفي الفجر ذهب إلى بيته، ونام النهار كله، وفي المساء ذهب إلى شقة روحية. . لم يفتح الورشة، هذه المرة هي المرة الأولى في التاريخ لا تفتح الورشة أبوابها في غير أيام الجمعة.

* * *

وأدمن عصام الشقة، والماكس.

وأنفق في الشقة كل مدخراته في غضون عدة أسابيع.

وباع أول ما باع. . محتويات الورشة. . وهي عبارة عن أربع دراجات بخارية جديدة وكل آلات الاصلاح.

وأصبح في حاجة إلى حقنة الماكس أكثر من مرة في اليوم، ولم يعد له دخل، فعرض الورشة ذاتها للبيع، وكانت في شارع تجاري مميز في الدرب الأحمر، فلم يجد صعوبة في بيعها، وبثمن أعلى بكثير مما اشتراها. . لقد باعها بمائة ألف جنيه.

عرفت أمه أنه مدمن للماكس، وأنه باع كل شيء، فعاتبته ولامته

بشدة.

توسلت إليه شقيقته أن يعالج نفسه في إحدى المصحات، ويعود للعمل، فسخت خطيبته ارتباطها به.

عرف كل الحي أنه مدمن.

كل هذا تلاشى أمام نداء جسده إلى هذا السائل القاتل، فترك الحي، واستأجر شقة مفروشة، وأنفق ثمن الورشة في عدة أسابيع.

* * *

وبدأ مرحلة جديدة في حياته.

جسده يحتاج إلى سائل الموت، ولا يملك له ثمناً.

ماذا يفعل؟

جسده يؤلمه، ولا يملك إيقاف الألم.

ذهب إلى العزار. . يتوسل إليه أن يعطيه حقنة.

والعزار تاجر مخدرات معروف في حارة بالدراسة، وكان عصام واحداً من زبائنه، وأنفق لديه عدة آلاف من الجنيهات، وهو الآن في حاجة إلى حقنة واحدة.

ووافق العزار أن يعطيه الحقنة مجاناً، بشرط. .

فرد عليه: بأي شرط في الدنيا!

هو موافق ولو طلب منه أن يلقي بنفسه في النيل أو أن يقتل أمه.

قال العزار:

ـ سأعلمك ضرب حقن الماكس، وسأرسلك إلى مكان تضرب فيه للمدمنين.

و«تضرب» هو اصطلاح المدمنين وتجار المخدرات، وهو يعني أن

تعطي المدمن حقنة ماكس في الوريد.

ووافق على الفور بلا تردد.

وأخذ حقنة الماكس.

* * *

أخـذه تاجر المخدرات إلى داخل المنزل، وسلمه «للدكتورة»..

و«الـدكتورة» سيدة في الخمسين من عمرها، ترتدي جلباباً أسود، قاسية الملامح.. وبدأت تعلمه كيفية إعطاء حقن الماكس للمدمنين في الوريد، كما علمته «ضرب الحقن» في وريد الرقبة، فعندما تهرب كل الأوردة من ذراع المدمن، ورجليه، عليه أن يبحث عن وريد الرقبة، وفي أقل من ثلاثة أيام تعلم كيف يضرب حقنة الماكس في أوردة المدمن.

وعاد إلى المعلم..

وبدأ المعلم يشرح له وظيفته الجديدة.

ـ ستـذهب مع حقن ماكس إلى مقـابر المجاورين، ستبقى هناك اثنتي عشرة ساعة، ومعك زجاجات الماكس وحقنة، وسوف يحضر إليك المدمنون، تعطي لهم الحقن، ولا تترك المكان إلا بعد أن يتسلمه منك آخر، ثم تعود إلى هنا فوراً، تسلم لي ما بقي لديك من سائل الماكس وما جمعته من مال.

وحدد له ثمن السنتيمتر المكعب من الماكس.

وذهب إلى الموقع..

وإذ به فرد في مجموعة، وكل مجموعة عمل تتكون من أربعة أفراد، اثنان «لضرب المدمنين» واثنان «ناضورجية».

والناضورجي يقف في موقع بعيد عن مكان وجود «صبي» التاجر،

الذي يعطي المدمنين المخدر، فإذا جاءت الشرطة قام بعمل إشارة صوتية متفق عليها نهاراً وضوئية ليلاً، وعلى المجموعة أن تلقي ما لديها من ماكس في الأرض وتهرب.

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله..

كاتب هذه السطور سمع من هذا المدمن ما يصعق أي مواطن لا في مصر وحدها، بل في أنحاء الوطن العربي، مما دفعني أن أذهب فوراً إلى العميد عصام الترساوي، رئيس قسم مكافحة المخدرات المخلقة، في إدارة المخدرات المصرية بميدان العتبة بالقاهرة، وما سمعته كان العجب العجاب، عن حكاية هذا السائل المرعب «الماكس فورت»، وحكاية مدمنيه..

يقول العميد الترساوي:

ـ مصر تتلقى كل أنواع المخدرات تهريباً من الخارج، فيما عدا الماكس فورت فهو يصنع محلياً، وقد أدخله إلى مصر عام **١٩٧٣** يهودي لبناني، جاء إلى مصر، واستقر بها، وادعى الإسلام، وتزوج بمصرية، وحصل على الجنسية المصرية، وكوّن مدرسة لتخريج من يصنعون هذا السائل اللعين، وقد تم القبض عليه، وحكم عليه ومات في السجن، ولكن، مدرسته ظلت تعمل حتى يومنا هذا.

ـ يقول العميد الترساوي:

ـ كان اسم اليهودي زكي حايك، وهناك استحالة أن تكون مصادفة.. أن أول من أدخل هذا السم إلى مصر يهودي، وقام بنشره بشكل رهيب في أنحاء مصر.. وهذا يؤكد أن مصر والدول العربية مستهدفة

بقذائف خطيرة اسمها «المخدرات».

يقول العميد الترساوي:

- ولكي نعرف حجم انتشاره في مصر، فإن الكمية التي تم ضبطها عام ١٩٨٢ من سائل الماكس تقدر بنحو (٣٨٨٣٥٥ سنيتمتراً مكعباً) والكمية المضبوطة في عام ١٩٨٧ هي (٣٨٨١٣٨٨ سنتيمتراً مكعباً). . أي أن الكمية قد تضاعفت عشرات المرات خلال خمس سنوات، والكميات المضبوطة مجرد مؤشر لانتشار هذا السائل، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد الحشيش.

ويتم تصنيع هذا السائل محلياً بطرق بدائية في أوان وزجاجات وأوعية غير معقمة، ويعطى السائل في حقن الوريد، وتتسم الأماكن التي يتم فيها التصنيع وحقن المدمنين بالقذارة، فهي أماكن خربة تدار كأوكار لتعاطي المخدرات، ولعب الميسر، وتسهيل الدعارة والبغاء.

ونهاية مدمن الماكس فورت هي إما الإرادة والتوقف بصلابة، أو الموت. . ومصر تشهد يومياً وفاة عدد من الشباب الذين أدمنوا هذا المخدر، وهو المخدر الذي يؤدي إلى الوفاة في غضون ثلاثة أعوام على الأكثر من إدمانه، ذلك أنه يسد الأوردة حتى يتوقف القلب تماماً.

انتهى ملخص الحوار مع رجل مكافحة هذا النوع من السموم.

* * *

نعود إلى رواية المدمن الموجود في قسم البوليس:

- في الصباح، تعطيني «الدكتورة» حقنة الماكس، لأفيق من النوم، وأذهب إلى مكان ما في المقابر، أنا وزميلي، ويحضر الزبون فأعطيه حقنة الماكس وأحصل على الثمن، وأستمر في عملي اثنتي عشرة ساعة، أجمع

خلالها ما بين ألف وألف وخمسمائة جنيه يومياً، ولا أترك المكان حتى تحضر مجموعة العمل الثانية وتأخذ المكان، وأعود بما جمعت أعطيه للمعلم، ويناولني القليل، وأنام، وأحياناً ألعب القمار مع رفاق المهنة.

معظم المتعاطين من الشباب، بين ثمانية عشرة عاماً وخمسة وثلاثين عاماً، وهم من الموسرين، فرغم أنه أرخص كثيراً من الهيروين، فإن المدمن ينفق ما لا يقل عن عشرة جنيهات في اليوم الواحد.. وكنت أعطي حقناً لما لا يقل عن مائة زبون في اليوم الواحد.

حتى كان الأمس..

مساء ٢١ أغسطس عام ١٩٨٨.

كانت ورديتي هذه المرة في المساء.

بعد أكثر من خمسين مدمناً، جاء المدمن الثري.

طلبت من زميلي حسن ماكس أن يعطيه الحقنة لوجود أكثر من زبون في يدي، ولكنه كان هو الآخر مشغولاً.

وهذا الزبون، شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، يأتي في سيارة فاخرة، يتعاطى يومياً الماكس أكثر من مرة، يترك بقشيشاً بكرم شديد.. من خلال حواري معه علمت أنه صاحب بوتيك ملابس في أرقى أحياء القاهرة، وأنه يكسب مئات الجنيهات يومياً، وأنه متزوج وله ثلاثة أطفال، ولكنه يكره زوجته.

ـ لماذا؟

ـ إني أشك في أمرها.

ـ لماذا؟

ـ لا أجد وقتاً لها ولا صحة، فالماكس هدني، ولا أستطيع حتى

السهر معها، والحوار معها، إلى درجة أنها بدأت تشك في سلوكي.

ـ لماذا؟

ـ في البداية، كنت أتحدث معها كثيراً، أروى لها آمالي، وبعد الماكس لم يعد لي آمال سوى تعاطى هذا السائل، فتصورت في البداية أنني أخونها، أو أنني متزوج بامرأة غيرها، وعندما علمت أنني أتعاطى الماكس، احتقرتني، وكان احتقارها لي عملياً.

ـ كيف؟

ـ تخرج وقتما تشاء، وتعود وقتما تشاء، لم تعد تهتم بي كزوج، أو حتى كإنسان يعيش في البيت، لا هم لها إلا المال، وهي سعيدة بذلك.

ـ وماذا تفعل؟

ـ أنا.. لا أفعل شيئاً، لقد تساوت عندي كل الأمور بفضل الماكس، الشرف عندي كالرذيلة، الحلال كالحرام، الشجاعة كالخوف، الأمانة كالخيانة، حتى الحياة نفسها أصبحت عندي كالموت.

بحثت في كل مكان بجسده عن وريد أغرس فيه الإبرة، وأحقنه بالماكس، فلم أجد.. لقد هربت كل الأوردة.. وفي هذه الحالة لا يوجد وريد غير وريد الرقبة، فقلت له:

ـ انفخ.

ونفخ.. ومعنى ذلك أن يأخذ نفساً عميقاً ويحبسه عدة ثوان في صدره، فتظهر العروق أو الأوردة الموجودة في الرقبة.

وظهر وريد غليظ في رقبته.

وغرست فيه الإبرة.

وسحبت قليلاً من دمه لأتأكد أن الإبرة في الوريد فعلاً.

وأفرغت السائل في الوريد.

وأخرجت الإبرة من رقبته.

بعدها مباشرة، سقط على الأرض.

جاء حسن ماكس وسألني:

ـ ماذا حدث للزبون؟

ـ فاقد الوعي.. وبعد لحظات سوف يقوم كالحصان.. هذه ليست المرة الأولى، لقد حدثت لغيره من قبل.

* * *

كانت الساعة السابعة مساء، عندما سقط الزبون، وانشغلت بزحام الزبائن الذين جاءوا بشكل كبير هذه الليلة، والغريب في الأمر أنهم كانوا يشاهدون الرجل ملقى على الأرض، ولا يسألون لماذا هو ملقى على الأرض؟ ربما لأنهم هم أيضاً في حالة غيبوبة، وربما لا يريدون معرفة نهاياتهم.

جاءت الساعة الثالثة صباحاً، وانتهت ورديتي، وجاءت المجموعة الثانية لتتسلم مني العمل، وسألت عن الرجل الملقى على الأرض، فقلت لهم إنها دقائق ويستيقظ.

* * *

عدت إلى البيت، وأخذت حقنة ماكس، ورحت في نوم عميق، ثم جاء موعد عملي.. أعطتني «الدكتورة» حقنة ماكس أخرى حتى أتمكن من جمع أعضاء جسدي المتناثرة، وحملت السائل، وذهبت..

وعندما اقتربت من الموقع، وجدت نوفل، ونوفل هو رئيس المجموعة، وطلب مني عدم الاقتراب، والعودة فوراً..

ـ الشـــاب . . مات . . والبـوليس اكتشف الأمـر . . لقـد مات من الحقنة . . وطول الليل كان جثة هامدة . .

ـ أنا لم أقتله . .

ـ ابتعد بسرعة، فالمنطقة كلها «مرشقة» برجال الأمن . . لقد ثبت أنه شخصية كبيرة . .

وعنـدمـا حاولت الهرب، وجدت أمامي أمين شرطة . . حاولت أن أهرب فعلاً، ولكن لحق بي، وأمسك بي ومعي سائل الماكس، وأخذني إلى قسم الشرطة، وبدأ التحقيق . . قلت ـ كما قلت لك ـ كل حكايتي في التحقيق .

* * *

ورحل عصام إلى السجن . . في انتظار مثوله أمام محكمة الجنايات بعدة تهم . . منها التسبب في قتل الشاب المدمن، وحيازة المخدرات، والتجارة فيها، وتعاطيها . . ليتهم يعدمونه .

* * *

(٤)

كان يجلس مرتجفـاً في ركن من أركـان غرفـة سجن الاستئنـاف بالقـاهـرة، يرتـدي البدلة الحمراء، انتظاراً لتنفيذ حكم الإعدام، عندما يسمـع صوت حذاء الجنـدي خارج الغـرفـة تنهـار قواه، وتبتل ملابسه، ويتفصد جسده عرقاً، ويتحول إلى تمثال، وجهته باب الغرفة التي سوف تفتـح بعد قليل، ليجروه إلى حبل المشنقة، ويختفي الصوت، فتتجمع بقايا قواه، وينهض بصعوبة، ويحاول أن يصل إلى طاقته الصغيرة الموجودة في غرفته، ويدعو الله بصوت منخفض، ثم يرتفع الصوت قليلاً، ثم يرتفع أكثر فأكثر.

ويظل يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ.. حتى يفتح الحارس الباب، ويطلب منه الهدوء، مرة باللين ومرة بالعنف.

وفجأة.. يطبق بيديه على حذاء الجندي، ويقبل الحذاء ويستمر في تقبيل الحذاء، والدموع تنهمر بغزارة من عينيه، وهو يردد:

ـ ارحمني يا عم إسمـاعيل.. ارحمني.. أنقذني.. أريد العودة لزوجتي وابنتي.. لا أريد أن أموت.. لا.. الموت لا.. أنا لا أستحق الإعدام.

وينظر إليه عم إسماعيل نظرة كراهية، ويقول له:

ـ ألم تسترحمك تلك الصبية؟ ألم تتوسل إليك؟ فلم ترحمها، ولم تستمع إلى توسلاتها.

ـ غلطة.. ولن تتكرر..

ـ لم يعد في العمر بقية حتى للأخطاء أو تكرارها.

ـ يعني سأموت.. سأعدم.. سيلفون حبل المشنقة حول عنقي.. وابنتي.. وزوجتي.. وأمي.

ـ اطلب لهم الرحمة.. والحماية من ذئاب المدينة..

ـ أرجوك.. أرجوك..

ويستمر الشاب في قصيدة الرحمة وملحمة التوسل.. وينزع إسماعيل الحذاء من يدي الشاب.. ويخرج.. ثم يطبق عليه باب الزنزانة.

* * *

كنت قد حصلت على تصريح لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام في واحد من ستة شباب.. أمسكوا بفتاة طاهرة نقية في حي المعادي الهادي بالقاهرة.. تجلس في سيارة مع خطيبها بعد أن شاهدا شقة المستقبل.. وكانا في طريقهما إلى العودة بعد رحلة أمل لحياة جديدة في تلك الشقة الفاخرة.. وكانت الفتاة سعيدة في تلك اللحظة.. كانت تفكر في أثاث منزل الزوجية.. وفجأة توقفت سيارة أجرة بجوارهما، ونزل منها خمسة شباب على وجوههم غضب الدنيا والآخرة، في شبه غيبوبة، وطلبوا من خطيبها أن ينزل من السيارة، وألقوا بها في سيارة الأجرة، وقام آخر بتفتيش السيارة وسرقة ما فيها، ثم طعنوا كاوتش السيارة فخرج الهواء من عجلاتها الأربع، ثم أخذوا معهم خطيبها وانطلقوا..

كل ذلك تم بسرعة مذهلة.

الفتاة في السيارة تبكي وتتوسل.. وهم.. يسخرون من توسلاتها..

الشاب.. يدمى من الجرح في جانبه الأيسر، ويتألم وهم يضحكون!..

حاولت الفتاة الصراخ للاستغاثة.. فضربها شاب من هؤلاء الشباب الخمسة على رأسها، فكادت تفقد النطق.

* * *

واستمرت رحلة العذاب والتعذيب والعبث.

وبدأ البحث عن مكان للاعتداء على الفتاة.

وجـدوا مكاناً بإحدى العمارات التي لم يكتمل بناؤها بعد، حيث يعرفون حارسها.

وفي العمارة المجهولة.. تم الاعتداء بوحشية على الفتاة أمام خطيبها!!

وعند الفجر أركبوهما السيارة، وألقوا بهما بعيداً، وهما بين الحياة والموت.. وتم إنقاذهما..

وأرشدا بعد ذلك عن موقع الجريمة.

وتم القبض في البداية على الحارس، الذي أرشد إلى أحدهم، وتم القبض عليه، فأرشد إلى غيره، حتى اكتمل القبض على كل أفراد تلك العصابة الخمسة.

وقدموا إلى المحكمة..

وحكم على بعضهم بالإعدام.

وهذا الشاب في انتظار تنفيذ حكم الإعدام، وهو واحد من عصابة

الخمسة والحارس.

* * *

جلست مع حارسه، أستمع منه عما يفعله هذا الذئب البشري، فروى لي عم إسماعيل ما بدأت به هذه المأساة.

ثم طلبت من مأمور السجن أن ألتقي بهذا الشاب قبل تنفيذ حكم الإعدام.. كان هناك ساعتان تقريباً على الموعد المحدد لتنفيذ حكم الإعدام..

وأخذني المأمور إلى زنزانته.

وفتح عم إسماعيل الباب.

ووجدت شاباً مذعوراً في ركن من أركان الزنزانة.

ونظر إلينا بذهول..

جحظت عيناه، وتحجرت دموعه، وفقد النطق.

كان يتصور أننا فرقة الإعدام.

واقتربت منه، فازداد ذُعراً.

ابتسمت إليه على الرغم مني، فقابل الابتسامة بذهول..

قلت له:

ـ ما اسمك؟

ورفض الإجابة.

ـ يا بني.. أنا صحفي، أريد أن أستمع إليك، أن تشكو لي، أن أنقل حكايتك إلى كل الناس.

وانفرجت عضلات وجهه المتحجرة، وطلب كوباً من الماء، وذهب عم إسماعيل وجاء له مسرعاً بكوب الماء، واحتساه بشراهة، فقدم له

السيجارة، فرفض السيجارة مذعوراً.

ـ لا . . أقسم بالله العظيم، حتى السجاير لن أدخنها.

وهمست للمأمور. . بأنه وعد متأخراً. . فكلها دقائق ويفارق الحياة إلا إذا حدثت معجزة.

ـ اسمع . . ما هي حكايتك يا بني . .

ـ أرجوك أن تكتب أنني بريء. . وأنني حرمت. . ولن أعود لما فعلت. .

* * *

ـ كان ميكانيكياً ممتازاً ومتعلماً، فهو حاصل على الثانوية الصناعية، ورفض الوظيفة الميري، والتحق لإصلاح السيارات في إحدى الورش، وطبّق ما درسه في المدرسه على السيارات. . وأتقن مهنته، وعمق الإتقان بالأمانة، فأصبح العمود الفقري للورشة، وكان يكسب كثيراً جداً، وينفق قليلاً جداً، فتجمع لديه مبلغ من المال، مكنه من استئجار شقة وتأثيثها أثاثاً جيداً، ثم اكتملت سعادته بزواجه من فتاة طيبة من قريباته، لا تطالب بمطالب لها، ولا عمل لها سوى رعاية هذا الشاب، والسهر على خدمته، وراحته، كما لم تكن مبذرة، فارتفعت مدخراته. . فقرر ترك الورشة وشراء سيارة أجرة فاخرة، يسافر بها على خط القاهرة بورسعيد، ويكسب بالآلاف. .

اشترى السيارة، وبدأ العمل. . وبدأ يكسب الآلاف كل شهر، فبدأ يحلم بإقامة أسطول نقل يربط القاهرة بكل عواصم المحافظات، وفعلاً. . بدأ يدخر، وبدأ رصيده يرتفع في البنك.

* * *

ـ ألم تعرف المخدرات قط؟

قال الشاب الذي يرتدي الزي الأحمر القاني :

ـ عرفتها، منذ خمس سنوات فقط، ورغم ذلك ما كانت تهمني كثيراً، وما كنت مدمناً لها على الإطلاق.

وبدأ الشاب يروي حكايته مع المخدرات.

إن معظم السائقين يدمنون نوعين من المخدرات، هما الحشيش والأفيون، والسبب أن هناك شائعة تقول: إن «المسطول» لا يشعر بالزمن الذي يقود فيه السيارة، ولكن السبب الحقيقي هو انتشار أوكار المخدرات على كل الطرق.

لقد رفض هذا الشاب أن يتعاطى الحشيش في الأوكار المنتشرة على الطريق، كان دائماً يقول: إن عودتي إلى بيتي ومعي كيلو من اللحم، خير ألف مرة من أن أشتري الحشيش.

حتى كان يوم، لقد دعا بعض الأصدقاء إلى بيته، بمناسبة عيد ميلاد ابنته، وطلب الأصدقاء الحشيش، واشترى لهم الحشيش من شارع ضيق بجوار مديرية أمن القاهرة، وعاد وجاملهم، ودخن بعض الأحجار معهم، وبعد انتهاء الحفل، قرر عدم تعاطي المخدرات، ومنذ ذلك اليوم لم يتناول الحشيش.

* * *

وباستقامته، ادخر مبلغاً من المال، اشترى به سيارة جديدة ثانية.

جاء بالقديمة وأعطاها لسائق صديق له مشاركة، وبدأ حلم أسطول النقل يداعبه.

لم يكن يشكو من شيء في حياته.

زوجته سيدة ريفية بسيطة لا مطالب لها، ولا سؤال.

ابنته الصغيرة يحبها حباً شديداً، ويحلم لها بمستقبل رائع، في ظل بحبوحة العيش التي يعيشها.

أمه تحبه.. وتتمنى له مستقبلاً باهراً.

إخوته على علاقة طيبة به.

هو.. فرض الاحترام على كل جيرانه.

إذن.. فهو رجل سعيد جداً.

* * *

ذات يوم عصيب.. تعطلت سيارته الجديدة، فذهب بها إلى الورشة التي كان يعمل بها، وطلب من صديقه الميكانيكي أن يتفرغ لإصلاحها، بحيث تكون جاهزة للسفر صباحاً، وتم الكشف على السيارة، وطلب منه الميكانيكي أن يمر عليه في المساء، وستكون السيارة جاهزة..

وفي المساء ذهب إلى صديقه، وجد السيارة تقف على باب الورشة كالعروسة.

ـ تمام..

ودخل السيارة، وأدار المحرك..

ـ تمام، سلمت يداك.

ودعاه على سهرة في منزله، وذهب معه، وشرب معه الشاي، وبعد دقائق جاء ثلاثة.. ورحب بهم الميكانيكي.

ـ أحضرت الصنف؟

ـ قالوا له: إنه صنف فاخر.

ـ من السبتية أو الجيارة؟

* * *

كان الصنف الفاخر الذي تحدث عنه الصديق هو «الهيروين»، وحورية شقيقة تاجر مخدرات كبير في الباطنية، تم القبض عليه، وبعد ذلك مات في السجن، فأخذت من منطقة الجيارة مسرحاً لبيع السم الأبيض الذي انتشر في مصر والعالم العربي بعد عام ١٩٨٠، وهي تبيع هذا السم بشكل علني (وقد تم اعتقالها بعد ذلك)، والتذكرة بأربعين جنيهاً، وجاء الأصدقاء بأكثر من تذكرة.

لم يكن الشاب يعرف جيداً هذا المسحوق القاتل، ووضع الشباب الخمسة الهيروين على مرآة صغيرة، وحولوها بعملة ورقية جديدة إلى خطوط كثيرة من المسحوق منفصلة، وأحضر الميكانيكي أنبوبة من البلاستيك، وأمسك بالأنبوبة، ووضع طرفها في فتحة أنفه، وسد بيده الفتحة الأخرى، وجاء باللوح الزجاجي أو المرآة، وجذب الخط الأول، ثم وضع الأنبوبة في الفتحة الثانية من أنفه، وجذب خطاً ثانياً.

وقدم للشاب المرآة بما عليها من هيروين، والأنبوبة، وطلب منه أن يجرب.

ورفض التجربة، فهو يسمع عنه كثيراً.

ـ جرب.. شمة واحدة لن تضر.

ورفض.. مرة ثانية.

ـ جرب.. وسوف تنقلك هذه «الشمة» إلى دنيا أخرى.. أرجوك، حتى نعيش جميعاً في عالم واحد.

وأمام هذا الإلحاح شم «خطين».

وبدأ الجميع يشمون . .

وشعـر بسعـادة غريبة، وأحس أنه كالفراشة يطير، بل أحس برغبة جنسية ملحة، وأحس برغبة شديدة في المغامرة، فهي ليلة واحدة سعيدة .

في هذه اللحظة . . نسي كل شيء .

نسي زوجته وابنته .

نسي استقامته وحرصه على مستقبله .

نسي أسطول النقل الذي يحلم به .

نسي المبادىء والقيم .

تذكر أمراً واحداً، رغبة في الجنس، ورغبة في المغامرة، أو القيام بعمل غير مألوف، واقترح الذهاب إلى أحد الملاهي الليلية .

ووافق الجميع .

* * *

ركب الجميع سيارته، في طريقهم إلى شارع الهرم . . وفي إحدى إشارات المرور، شاهدوا سيارة بجوارهم، تقودها امرأة جميلة، فاقترح أن يطاردوها . . ويأتوا بها إلى البيت لتنفيذ الرغبة الجنسية الملحة التي يشعر بها .

وانـطلقت السيارة التي تقـودها السيدة الجميلة، وانطلقوا خلفها، واتجهت إلى المعـادي، وهـم يحاولون اللحاق بها، ولكنها اختفت عن أنظارهم؟ كيف؟ . . لا أحد منهم يدري .

أصبحوا في حي المعادي .

وبدأوا يبحثون عن المرأة الجميلة في شوارع المعادي، فلم يعثروا لها على أثر، وأثناء ذلك، شاهدوا فتاة جميلة أيضاً تنزل من عمارة، ومعها

شاب في الخامسة والعشرين من عمره، ويركبان سيارة بيضاء صغيرة.

ـ ما رأيكم؟

ـ أحلى من تلك التي هربت؟

ـ والشاب الذي معها؟

ـ نقتله.

ـ نضربه.

ـ نجرده من ملابسه.

وأسرع الشاب.. ووقف أمام السيارة، ونزلوا جميعاً، وتم اختطاف الفتاة.

ـ أين نذهب بها؟

ـ أريد أقرب مكان.

ـ هنا.. على مقربة منا.. بواب عمارة لم يكتمل بناؤها.

* * *

آه.. تمت أبشع جريمة.. تبادل الشباب الخمسة وبواب العمارة اغتصاب الفتاة أمام خطيبها.

سألت الشاب الذي ينتظر ـ دون أن يدري ـ فرقة الإعدام، لوضع نهاية لحياته..

ـ ألم تسترحمك؟

ـ نعم.. توسلت.. بكت.. صرخت.. قبلت حذائي.. ولكن ذلك المسحوق القاتل.. قد قتل عندي الضمير، وحولني في لحظات.. إلى وحش قاتل لا أعرف العدل ولا الرحمة.. لست مسئولاً عما فعلت.

ـ من المسئول؟

ـ حورية .

ـ من هي حورية؟

ـ تاجرة الهيروين التي باعت للشباب .

ـ ثم سكت الشاب وقال :

ـ إذا كان لا بد من إعدامي . . فإن إعدام حورية يجب أن يتم قبلي .

ـ كم مرة تناولت فيها الهيروين؟

ـ هي هذه المرة . . نعم مرة واحدة، ستدفع بي إلى حبل المشنقة .

ـ ماذا لو كانت الضحية هي أختك؟

ـ كنت في غيبوبة . . لم يكن عقلي أنا الذي يفكر . . كان عقل الشيطان هو الذي يفكر بدلاً مني . . الهيروين جاء لي عدة ساعات بعقل آخر غير عقلي . . عقل مجرم . . شيطان . . سفاح . . ولكنه لم يكن عقلي .

ـ وهل استمتعت بالجريمة؟

ـ سيدي . . ألم تقرأ تقرير الطبيب الشرعي . . إن الفتاة رغم ما حدث فهي عذراء .

ـ كيف؟

ـ لا أدري . . ولكن هذا ما حدث؟

لم يكن يدري الشاب أن الرغبة الجنسية التي انتابته هي رغبة كاذبة، بل إن تناول الهيروين يضعف المدمن جنسياً . . كل ما يشعر به هو الرغبة . . مجرد رغبة .

سألت الشاب الذي كان ينتظر دون أن يدري فرقة الإعدام .

ـ وماذا بعد القبض عليك؟

ـ لم تصدق أسرتي أن الشرطة هي التي تطلبني . . فلقد كنت ملاكاً حقيقياً . . اسأل زوجتي . . ستقول لك: إنني زوجي مثالي . . اسأل ابنتي . . ستقول لك إنها تحبني . . اسأل . . أمي . . ستقول لك: إنني بارٌّ بها . . ولكن شمة الهيروين الأولى والأخيرة . . عطلت كل هذه الخلق، واستبدلت بها أخلاق السفلة . . ولكني لست كذلك . . صدقني لست كذلك . . أنا نفسي لا أصدق أنني أقدمت على ارتكاب هذه الجريمة، ولكن هذا ما حدث، وقفت أمام المحكمة لا أصدق الاتهامات . . سمعت الحكم فانهارت قواي . . لم أصدق أن هذا سيكون مصيري .

ثم وقف الشاب لحظة عن الحديث، وقال:

ـ هل حقاً سوف أعدم؟!

ونظرت إليه، وسادت فترة صمت، صرخ بعدها صرخة مدوية، لقد دخلت الغرفة فرقة الإعدام، واستند إلى جنديين، فلم يكن قادراً على المسير . . ولكنه كان يردد . . «شمة واحدة» تعدمني، شمة واحدة . . تعدمني . . شمة واحدة تعدمني .

* * *

وفي حفل كبير، حضرة مدير النيابة، وحراس، والمأمور، وعدد من الضباط، بدأت مراسم الإعدام، وقام مدير النيابة بتلاوة الحكم الذي صدر عليه وأسبابه، ثم تُليت آيات من القرآن الكريم، وطُلب منه أن ينطق بالشهادتين، فلم يتمكن، وحاولوا معه أن يردد الشهادتين فلم يتمكن، وسأله مأمور السجن عما يريده قبل أن يعدم . . ولم ينطق . .

وجاء الحارس، ووضع على رأسه غطاء .

وتم سحبه إلى غرفة الإعدام .

وتركت المكان . . قبل أن أرى جثة معلقة في حبل المشنقة .

وما إن ابتعدت خطوات حتى سمعت صوت صرخة مدوية . . هي آخر صرخة في حياة هذا الشاب ! !

* * *

(٥)

من بين الرسائل اليومية للقراء، توقفت طويلاً عند رسالة قصيرة من سيدة، تركت في نهايتها اسمها ورقم تليفونها، وطلبت مني عدم ذكر اسمها وقرأت الرسالة مرة، وأصابني الفزع، وفي نهاية الرسالة طلبت مني الاتصال بها إذا احتجت إلى أي استفسارات.

قرأت الرسالة مرة أخرى.. وكانت كافية.. ولم أكن في حاجة إلى أي استفسارات.. ولكن كنت في حاجة إلى سماع صوتها، لتتحول الكلمات أمامي إلى واقع مسموع.

واتصلت بها..

واستمعت إليها..

واستطعت أن أستخرج حكايتها من بين نحيبها الذي استمر أكثر من ساعتين.

* * *

هي سيدة في الخامسة والعشرين من عمرها، والدها فقيه من فقهاء الدين الإسلامي، علمها الصلاة والتقوى وعمل الخير، علمها السماح والغفران والتكافل، وعاشت على ما تعلمته من والدها.. وتزوجت شاباً مؤمناً تقياً، يعمل مدرساً في الجامعة.. ويبدو أن السعادة لا تكتمل أبداً،

فلقد حرما من الإنجاب، وزارت الأطباء، طبيباً وراء الآخر، فأجمعوا أن السيدة بلا عيوب، وربما يكون «العيب» في زوجها، وخجلت أن تطلب منه الذهاب إلى الطبيب، لأنه بالتأكيد سيقول له إن سبب عدم الإنجاب هو الزوج، ويكفي أنها تعلم ذلك وترتب حياتها على هذا القدر.

وكم مرة حاولت أمها أن تحمس الزوج للذهاب إلى الطبيب، إلا أن الزوجة كانت ترجو أمها ألا تفعل، ثم تبدأ تروي تفاصيل السعادة التي تعيشها مع زوجها الذي لا ينجب.

في أحد الأيام، دخلت الزوجة على أمها، فوجدتها غاية في الحزن!

ـ لماذا؟

ـ لقد تحدثت مع زوجك.

ـ أرجو ألا تكون مسألة الأطفال.

ـ هي.. هذه المسألة.

ـ لماذا؟

وكادت أن تبكي الزوجة، لأن الأم أحرجت الزوج الطيب، ثم سألت أمها:

ـ هل أغضبك رده عليك؟

ـ لا.. بل أحزنني.

ـ كيف؟

ـ الرجل بريء.

وبدأت الأم تروي ما حدث بينها وبين زوج ابنتها، لقد طلبت منه أن يذهب إلى الطبيب، فأخبرها بأنه ذهب لأكثر من طبيب، واتفق الجميع على أنه سليم، بل اقترح عليه أحدهم أن يغير فراشه إذا كان يرى في

الإنجاب رغبة شديدة، وعندما أخبرهم بأن زوجته تقول إنها سليمة شكو في هذا، إلا أن أحد الأطباء أكد أن هذه ممكن أن يحدث علمياً، أن يتأخر الحمل، وأن هذا يتوقف على الزمن، وسألته الأم عن معنى تغيير الفراش، فأخبرها بأن يتزوج امرأة أخرى، إلا أنه لم ولن يفرط في ابنتها فهي كل حياته، بل إنه قرر ألا يخبرها بما حدث حتى لا يضعها في موقف قد يسبب لها ولو قليلاً من الخوف والإحراج.

* * *

وعاشت الأسرة الصغيرة ـ الزوج والزوجة ـ في سعادة، وكلما يشعر أحدهم بالحنين إلى الأطفال.. يتضرعون إلى الله أن يكمل لهما السعادة.. ويرزقهما بطفل يزيد من سعادة الزوجين.. وتوقفت الأم عن حديث الأطفال والأطباء.

* * *

وفي أحد الأيام، مرضت الأم المقيمة في ضاحية حلوان، وذهبت ابنتها لتقضي النهار بجوارها، وتعود إلى منزلها في حدائق القبة قبل الغروب، وأثناء وجودها مع أمها، اتصل زوجها تليفونياً بها وقال إن عنده ندوة عن الجامعة الأهلية في نادي هيئة تدريس جامعة القاهرة وبعد انتهاء الندوة سيمر عليها لزيارة أمها، ويصحبها إلى البيت.

وانتظرت الزوجة حتى التاسعة مساء، ولم يحضر الزوج، وبعد دقائق اتصل مرة أخرى وطلب منها أن تقضي الليلة مع والدتها أو تعود إلى البيت في وسائل النقل العامة.

وقررت أن تعود إلى البيت، مستخدمة مترو حلوان حتى ميدان رمسيس، ثم تركب الأوتوبيس حتى منزلها.

الوصول إلى البيت أن تركبه.

ـ على فين يا هانم؟

منتهى الأدب من السائق.

ـ إلى حدائق القبة.

ـ أمرك يا هانم.

أيضاً.. منتهى الأدب.. وشعرت براحة لأنها وجدت سائقاً مهذباً سيوصلها إلى بيتها بأمان.

وسار السائق صامتاً تاماً.

ثم اتجة إلى طريق عريض مظلم.

ـ ما هذا؟

ـ هذا هو الطريق الدائري، خلال دقائق سنسقط منه على حدائق القبة.

لا تدري الزوجة.. لماذا وافقت على ذلك؟.. لا تدري لماذا لم تفتح الباب وتقفز منه؟. هل هو أدب السائق؟.. هل هو استسلام للأمر الواقع؟.. هل هو حسن النية؟.. هي لا تدري حتى الآن لماذا وافقت.

* * *

سارت صامتة مستسلمة.. وعندما وجدت الطريق مظلماً خاوياً من حركة المرور ارتجفت رعباً.. وعندما بدأ السائق يخفض من سرعته وكأنه يتنزه، تملكها منه الرعب، وعندما بدأت تحاوره.. تأكدت أن الليلة سوداء.. وأنها مقبلة على كارثة لا محالة.

ـ لماذا خفضت السرعة؟

ـ الجو جميل يا هانم، دعينا نستمتع بهذا الجو.

ـ أرجوك، زوجي في انتظاري.. أسرع.

ـ لن تفرق كثيراً.. السرعة من الشيطان.. والهدوء من الإيمان.

وأطلق ضحكة عالية في هذا الخلاء.. ونظر إليها وهو يقود السيارة ويبتسم ابتسامة إبليس.

ـ انظر أمامك أرجوك.. خوفاً من أن تحدث كارثة..

ـ لا تخافي من الحوادث.. فالطريق ملكنا.. لا أحد فيه.

وسكتت السيدة عن الكلام، وإذا بالسائق يخرج من جيبه شيئاً ما.. ويضعه على يده التي يقود بها السيارة.. ثم يمسك عجلة القيادة باليد الأخرى ويشم المسحوق.. وكرر ذلك عدة مرات..

ـ هل تعرفين هذا؟

ولم ترد عليه الزوجة.. إلا أنه أجاب على سؤاله..

ـ بودرة.. هيروين.. ليتك تشاركينني هذا المزاج الملوكي.

وبدأ الثرثرة حول البودرة.

ـ أنا أشتري يومياً بمائة جنيه بودرة.. تصوري أنني أشتريها من شارع ملاصق لمديرية أمن القاهرة.. حاولي تجربي.. سوف تحلقي معي في السماء.. لو أخذت ولو شمة واحدة.

ولم ترد عليه على الإطلاق..

وتوقف بالسيارة..

ـ لماذا توقفت؟

ـ من أجل المزاج.

وصرخت فيه أن يسير، وقابل صراخها بسخرية، فقالت له بحسم،

والي تنتفض رعباً:

- اسمع . . أنا زوجة ضابط شرطة . . سأخبر زوجي بما فعلت .

فازدادت سخريته . .

- اسمعي أنت . . عندما يمتلىء رأسي بالبودرة لا أخاف من ضابط شرطة ولا من وزير الداخلية نفسه . .

- أرجوك . . زوجي في انتظاري . .

وقال السائق بشراسة :

- أنا أكره ضباط الشرطة . . وطالما أنك هددتني بزوجك . . فلن أوصلك . . انزلي هنا . .

- أنزل هنا . . كيف . . هل جننت؟

- سأعلمك النزول من سيارتي . .

ونزل السائق . . وفتح الباب الخلفي . . وأمرها بالنزول إلا أنها قاومت . . فجذبها بقوة . . فسقطت على الأرض . . فهجم عليها كالوحش الكاسر . . قاومته بشدة . . استرحمته . . توسلت إليه . . وكان يضحك كالشيطان . . ومزق ملابسها . . وعندما تعرى جسدها . . راحت في غيبوبة . . لم تعد تدري ماذا حدث؟ . .

إلا أنها استيقظت من الغيبوبة . . في هذا الخلاء والظلام . . ووجدت أن هذا الذئب البشري قد اغتصبها . . عرفت ذلك من ملابسها الممزقة . . من آثار هذا الذئب على جسدها . . وبكت . . وحدها . . ولطمت الخدود . . وأخذت من الرمال وألقت على رأسها . . وصرخت . . وتمنت الموت . . ولم تعد تدري ماذا تفعل؟ ولا تدري ما إذا كانت في بداية الليل أو في نهايته؟ وخافت المكان والظلام والخلاء . . بل خافت أن تقف

في الطريق لتشير إلى أي سيارة قد تمر على هذا الطريق . . فتسقط في كمين ذئب آخر.

ولكن . .

زحفت «إرادياً» . . ووقفت في الطريق . . كاد قلبها أن يتوقف .

وبعد فترة . . هي الدهر كله . . جاءت سيارة . . ووقفت لها . . كان بداخلها رجل عجوز . وابنه . . ركبت السيارة . . وسألها الرجل العجوز:

ـ ماذا جاء بك هنا؟

وبـدأت تروي له ما حدث دون الإشارة إلى حادثة الاغتصاب . . ولكنها قالت إنها سرقة بالإكراه .

كم خجلت من نفسها، وكم حاولت أن تستر جسدها العاري، حتى إن الشاب الذي كان يجلس بجوار والده خلع لها قميصه وأعطاها إياه، وطلبت من الرجل العجوز أن يذهب بها إلى بيت والدتها في حلوان .

* * *

الرجل العجوز . . استاء بشدة وغضب لما حدث للزوجة . . وقال :

ـ تأكـدي يا ابنتي أن هذا السائق قد سرقك بالإكراه ليشتري المخدرات . . إنها مأساة العصر . . هل تعلمين يا ابنتي أن حل هذه المشكلة بسيط جداً . . الإعدام . .

كانت الزوجة تبكي . . هستيريا من البكاء . . نهر من الدموع!

ـ يا ابنتي قضاء أخف من قضاء . . إن هذا الخلاء . . ومع سائق واقع تحت تأثير المخدرات . . كان في إمكانه الاعتداء على شرفك .

وازدادت في البكاء . .

عرض عليها الرجل أن تذهب مباشرة إلى قسم الشرطة رفضت . .

صرخت الأم عندما شاهدت ابنتها في هذه الحالة المأساوية.

وارتمت الابنة في أحضان أمها تبكي من جديد..

ـ ماذا حدث؟

ـ أنا مت يا أماه.. انتهيت.. وانتهت حياتي.

ـ ماذا حدث؟

ـ أنا السبب. أنا السبب.

ـ ماذا حدث؟

وبدأت الزوجة تروي لأمها ما حدث.

ودق جرس التليفون.. وكان المتحدث هو الزوج.. لقد اتصل أكثر من مرة.. قالت الأم لزوج ابنتها:

ـ زوجتك عادت ونامت.

وحاول أن يستفسر عما حدث لها.. ولكن الأم قالت له: «لا شيء» جوهري قد حدث.. يبدو أنها أصيبت بإغماء.. ونحن في انتظارك صباحاً.

وعادت تستمع إلى ابنتها.

* * *

دق جرس الباب.. ودخل الزوج الذي لم ينتظر حتى الصباح.. ووجد زوجته في حالة مأساوية.. وكانت قد ارتدت ملابس أخرى بدلاً من تلك التي تمزقت.

ـ ماذا حدث؟

ـ كانت في طريقها إليك.. ولكنها تعرضت لسرقة بالإكراه من سائق التاكسي الذي ركبته.

ـ قلت لها أن تأتي في المواصلات العامة.

ـ هذا ما حدث، ونحمد الله على ذلك.

إلا أن الزوجة.. صاحت في أمها.. لا بد أن يعرف الحقيقة مهما كانت مرة..

ـ ما هي الحقيقة؟

ـ لقد اعتدى عليّ سائق مدمن للهيروين..

ولم يتمالك الزوج نفسه.. لقد انهارت قواه.. فألقى بجسده على كرسي في صالة البيت.

* * *

استمع الزوج إلى القصة كاملة.. وأخذ زوجته إلى قسم الشرطة.. وأبلغ عن ذلك السائق الذي أدمن الهيروين واعتدى على زوجته.. وحرر محضراً بالواقعة.. وبدأ البحث عن السائق الذي اغتال شرف هذه السيدة الفاضلة.

قلت للزوجة عبر أسلاك الهاتف:

ـ هل تعتقدين أن هذا الذئب سوف يسقط في أيدي الشرطة؟

ـ نعم.. وإن لم يسقط في أيدي الشرطة.. فسوف يسقط في يدي.. وأرجو أن يسقط في أيدي الشرطة قبل أن يسقط في يدي.. فأنا.. ومعي سكين قاتل.. أذهب إلى مواقف التاكسيات أبحث فيها.. ولو شاهدته فسوف أغرس في بطنه هذا السكين.. فملامحه أمامي.. ورائحة أنفاسه الكريهة في أنفي تصيبني حتى الآن بالغثيان.. أستطيع أن أتعرف عليه من وسط ملايين البشر..

* * *

تقول السيدة . . لماذا أردت أن أنشر قصتي؟

ـ هنـاك عدة أسبـاب لنشـر هذه القصة . فمنذ ذلك التاريخ الذي أحفـظه عن ظهـر قلب . . وأنـا أحـاول دراسة مظاهر الإدمان . . وقوانين المخدرات . . وانتهى بي الأمر إلى تكوين رأي حول هذه القضية . . رأي نابـع من بحـور المأساة التي أعيشها . . رأي نابع من سيدة ترى الموت أفضل من الحياة . . من سيدة عاشت السعادة كلها . . وبعد ليلة . . تعيش الشقاء كله . .

فما هو هذا الرأي؟

إن كل قوانين مكافحة المخدرات في مصر والعالم العربي قاصرة تماماً، ولن نقضي على المخدرات أبداً بهذه القوانين الرحيمة .

إنني أطـالب بتشريع جديد يحكم بالإعدام على المهرب والتاجر والموزع والمدمن .

نعم . . والمدمن . .

هناك من يقول إن المدمن مريض يجب علاجه وإنه ضحية للمهرب والتاجر والموزع .

وأنا أختلف تماماً مع كل من يقول هذا . .

إن كل الـدراسات تقول إن مدمن المخدرات يتحول إلى مجرم، يمكن أن يقتل، ويمكن أن يرتكب أي جريمة مادام واقعاً تحت تأثير المخدرات .

إذن . . هنـاك ضحية بريئـة . . قد يقتلها المدمن . . والقوانين كل القوانين قد وضعت لمنع الجريمة، وعقاب المجرم، وإنني أرى أن إعدام المدمن هو منع للجريمة، هو حماية لروح بريئة قد تذهب ضحية مدمن،

نقول عنه إنه مريض.

سوف أدافع عن وجهة نظري هذه حتى يتحقق أملي، أو حتى أموت مادياً، فلقد قتلني مدمن، وهو الآن حر طليق، وربما يقتل الآن غيري.

* * *

لا.. إن حكايتي لم تنته بعد..

لقد انقضى على تلك الحادثة ـ حتى الآن ـ أربعة أشهر من الألم والعذاب، أحببت خلالها زوجي أكثر وأكثر، فهو الذي يخفف عني الآلام التي أعيش فيها.. يحاول قدر طاقته أن يضفي على حياتنا سعادة، ولكنها سعادة مزيفة.

كم بودي أن أسعد زوجي.. ولكن فاقد السعادة لا يقدر على تقديمها، حتى لأحب الناس إليه.

مأساتي تزداد سوءاً مع الأيام..

لقد عدت بالأمس من عند الطبيب ليخبرني بأنني حامل في الشهر الرابع.. ولا أدري.. ابن من الذي يسكن في أحشائي؟.. هل هو ابن الجريمة والخطيئة.. هل هو ابن السائق القاتل المدمن الذي اغتال كل جميل في حياتي؟.. أم هو ابن زوجي؟

كما ذكرت في البداية.. فمن الممكن أن أنجب من زوجي.. فلا توجد عيوب في زوجي.

أنا في حيرة.. لا أعرف إجابة لهذا السؤال الذي زاد من آلامي ومأساتي.

وأخيراً.. هذه قصتي.. رويتها بكل تفاصيلها.. فربما أجد من بين القراء من يوقف حيرتي.. ويخفف آلامي.. على السؤال المحير: ابن من

ذلك الذي في أحشائي؟

انتهى الحوار مع الزوجة.

أيها السادة..

لقد حاولت ـ من خلال حواري معها ـ أن أخفف من آلامها، أن أقول لها بغير علم إن ذلك الجنين الذي يسكن في أحشائها ليس سفاحاً، بل هو ابن شرعي لها ولزوجها، ولكنها حاصرتني بأسئلة كثيرة لم أتمكن من الإجابة عليها، عرفت منها أنها أخبرت زوجها، بل وأكثر من هذا، طرحت عليه نفس السؤال وكانت إجابته قريبة من إجابتي عليها.. فحاصرته بنفس الأسئلة فانضم إليها في حيرتها.

* * *

أيها السيدات..

أيها السادة..

من منكم يستطيع ـ عن علم ـ أن يجيب على سؤال هذه السيدة التي تقتل كل لحظة.. من منكم يستطيع أن يقول لها: ابن من ذلك الذي يسكن في أحشائها؟

* * *

(٦)

اتصل بي موظف الاستعلامات، وأخبرني بأن ضيفاً يريد أن يلتقي بك. . وسألته عن اسمه فقال محمد هريدي، ورحبت به، فلقد عملنا معاً في وزارة الإعـلام بالإمـارات، ولنـا معـاً ذكـريات حلوة، فالغـربـة كالميكـروسكـوب تكبـر الفضـائل والنقائص معاً، تعري النفوس، فنرى الحقيقة حلوة كانت أم مرة، ونعرف اللئيم من الكريم، ونلمس الفرق بين الأبيض والأسود، ففي الغربة يخلع الناس الأقنعة، وأيضاً ورقة التوت.

وكـان صديقي كريم الخلق في الغـربة، ولذلك تلهفت على هذا اللقاء، وجاء الرجل، وكان لقاء رائعاً، ولكني لاحظت أن الرجل في حالة توتـر شديدة، وأن هذه الـزيارة تخفي وراءهـا أمراً هاماً. . فألقيت أمامه بهواجسي. . حتى ندخل في الموضوع دون مقدمات.

قلت:

ـ هذه زيارة عمل، وليست زيارة مجاملة، وكم بودي أن أؤدي لك ما أستطيع أن أقدمه لك. . فابدأ فوراً. .

قال:

ـ جئت أطالبكم بأن تمضي في محاربة المخدرات. . وأرجوك ألا تتوقف. . فالقضية خطيرة. . خطيرة إلى آخر مدى.

ونظرت إليه . . وتساءلت! هل معقول أنه جاء ليقول لي هذا؟ كان يكفي اتصال هاتفي . .

ـ يا محمد . . ماذا تريد أن تقول؟

وبكى محمد!

إذن فالأمر خطير، فأنا لا أذكر أنني شاهدته يبكي .

ومسح دموعه . . وتوقف عن البكاء . . ثم تماسك . . وبدأ يروي ما جاء من أجله :

ـ فلان . . هل تذكره؟

ـ نعم أذكره . .

موظف في وزارة الإعلام بالإمارات، مرتبه يكفيه، وما يفيض ـ وهو قليل ـ يرسله إلى القاهرة لأسرته، وكان عندما يسمع عن زميل مسافر إلى القاهرة يرجوه أن يحمل معه هدية صغيرة إلى ابنه . . فإن حبه لابنه يفوق كل تصور . . إنه شاب في السابعة عشرة من عمره الآن على ما أذكر . . وهو شاب مؤمن وتقي، يؤدي الصلاة في أوقاتها، بار بأمه . . وبأبيه . . والرجل إذا جلست معه لا يمل الحديث عن ابنه هذا . . عن خلقه . . عن إخلاصه . . عن بشاشته . . عن وداعته . . وأيضاً عن عبقريته، ويقيم هذا الشاب مع والدته في حي الحسين العتيق . . أحد أحياء القاهرة القديمة . .

* * *

ـ نعم أذكره . . وأذكره بالخير دائماً . .

ـ لقد مات ابنه . .

لقد فزعت فزعاً شديداً . . فأنا أعلم جيداً ما يمثله هذا الشاب لأبيه . . إنه أمله وكل ما عمل له في الغربة . . وتصورت أن الشاب . .

لسبب أو لآخر قد أدمن ومات بسبب إدمان المخدرات . . فالضيف قد جاء يتحدث أول ما تحدث عن المخدرات ثم بكى .

ـ هل كان مدمناً؟

ـ أستغفر الله .

ثم سكت . . وقال :

ـ أحمد يدمن . . إن مغريات الدنيا كلها لا تدفعه إلى هذه الخطيئة . . يبدو أنك لا تعرف أحمد جيداً . .

ـ إذن . . ما هي الحكاية؟

* * *

كان ذلك في الأيام الأولى من شهر رمضان ، وتناول الشاب إفطاره . . وأدى صلاة المغرب في المنزل . . وكما هي عادته خرج لصلاة العشاء في المسجد . . وتلاوة القرآن الكريم . . وبعد فترة . . دق جرس التليفون في منزله . . وردت أمه . . وجاءت محادثة غريبة :

ـ اسمعي . . نحن قد خطفنا ابنك . . وإن لم تدفعي سبعين ألف جنيه . . فسوف نقتله . وسوف نتصل بك لنحدد موعد وطريقة دفع المبلغ . . اسمعي . . إذا حدث وقمت بإبلاغ الشرطة . . فسوف نقتل ابنك .

ووضعت سماعة التليفون . . وصرخت . . فهي لا تدري ماذا تفعل؟ . . جاءت إليها جارتها مذعورة . . تسألها عن سبب صراخها . . وكادت أن تقول لها . . ثم تذكرت المكالمة وضرورة سرية الأمر حتى لا يصاب ابنها بأي مكروه ، وطلبت من جارتها بشكل هستيري أن تعود من حيث جاءت . . وخرجت جارتها وهي تتصور أن جارتها الرزينة العاقلة . .

قد مسها شيء من الجنون.

تمنت أن تكون هذه المكالمة مجرد مداعبة سخيفة.. ذهبت إلى النافذة.. تنظر منها على الشارع.. فربما يعود.. فذهبت إلى الشباك الآخر في نفس الوقت.. وتنظر منه فربما يعود وحيدها.. وطالت حيرتها.. ولم يعد وحيدها.

اتصلت بشقيقها.. وطلبت منه أن يحضر إليها فوراً لأمر هام.. وخلال انتظارها للشقيق لم تتوقف لحظة عن النظر من النافذة.. وجاء الشقيق مسرعاً.. وهو رجل عاقل في الخمسين من عمره.. وروت له ما حدث فاقترح عليها أن تخرج معه فوراً وتبلغ الشرطة.. ولكنها رفضت.. بل توسلت إلى شقيقها ألا يفعل.. فربما نفذوا تهديدهم ويموت وحيدها.. والحل؟

* * *

اتصلت الزوجة بزوجها في الإمارات، وأخبرته بما حدث، فأخبرها بأن سيكون في القاهرة على أول طائرة، الزوج لا يملك هذا المبلغ الضخم، فكما ذكرت هو موظف بسيط، لم يتمكن حتى من أن يصحب زوجته في الغربة، وعرف المصريون بالأمر الذي هو فيه.. وبدأت حملة تبرعات سريعة، وتم جمع المبلغ في أقل من ست ساعات، فالرجل ـ كما سبق وذكرت أيضاً ـ صاحب سمعة عطرة، قدم كل مساعدة لكل من طلبها منه وكانت في استطاعته، يود الصغير والكبير، يرى في خدمة أبناء الوطن في الغربة واجباً وطنياً وإنسانياً يحرص عليه.. لذلك، كان من السهل جمع المبلغ لهذا الرجل الطيب البسيط.

* * *

وصل إلى القاهرة ومعه «الفدية»، واتجه إلى بيته ليجد زوجته في حالة جنون مطبق.. صرخت عندما شاهدت زوجها..

ـ هل أتيت بالمال؟

ـ نعم.. أرجوك الهدوء.

قالت بعصبية وجنون في نفس الوقت:

ـ أحمد لم يحضر.. والعصابة لم تتصل.. يومين كاملين وأنا بجوار التليفون.. لماذا لم يتصلوا؟.. أين ذهب ابني؟.. أين وحيدي؟

وتدخل خال أحمد في الحديث:

ـ لا بد من إبلاغ الشرطة.

فصرخت الزوجة:

ـ العصابة لو عرفت فسوف تقتله.

فحسم الخال الموقف.. قائلاً:

ـ إن لم توافقوا على ما أقوله.. فسوف أذهب بنفسي إلى قسم الشرطة.

* * *

بدأت الشرطة في البحث عن الشاب الذي اختطف.. وعاشت الأم بجوار التليفون تنفيذاً لخطة الشرطة.. والوالد تائه في شوارع القاهرة ومستشفياتها.. بحثاً عن الابن الأمل.. وشعر أنه يبحث عن دبوس في محيط من الرمال.. وكان أحياناً يفقد الأمل في العثور عليه.. وأحياناً أخرى يتصور أنه عند أحد أصدقائه.. فيعود إلى بيوت الأصدقاء يسأل عن وحيده..

* * *

ذات يوم أسود . . بل حالك في السواد جاء ضابط الشرطة المكلف بالبحث عن الشاب إلى منزل الأسرة، وطلب لقاء الوالد . . وطلب منه أن يأتي معه . . وكان الضابط متجهماً . . حاولت الأم أن تعرف السبب ولكنها فشلت في ذلك . . وفي الطريق . . تحدث الضابط . .

ـ أرجو أن تتماسك . . سنذهب إلى مكان قريب . . هناك جثة . . عندي شك . . مجرد شك . . أنها قد تكون لابنك . . وأرجو أن أكون على خطأ . . وأعتقد أنني على خطأ . .

لم ينطـق الأب بحرف واحد . . وكل ما تمناه أن يكون الضابط على خطأ . . فلا يعقل أن تكون نهاية ابنه : جثة . .

* * *

في أحد الجراجات المهجورة . . دخل الأب خلف الضابط وقلبه يكاد يقفز خارج جسده خوفاً . . فربما تكون الجثة لابنه . . وبعد خطوات قليلة . . وجد جثة لشاب مذبوح من رقبته بسكين . . والدماء قد جفت على وجهه فأخفت معالمه . . وصرخ الوالد :

ـ لا . . هذا ليس ابني . . ابني موجود يا حضرة الضابط . . أرجوك ابحث عنه بين الأموات . . بل ابحث عنه بين الأحياء .

وأثناء ذلك . . شاهد الحذاء الذي يرتديه القتيل . . هو من نفس نوع الحذاء الذي كان قد أرسله منذ فترة قليلة . . فعاد ليدقق النظر . . وصرخ . .

ـ ابني مات . . قتلوه الكلاب . . أرجوك يا حضرة الضابط من قتل ابني . . أين القتلة؟

* * *

انهارت الأم . . وحزن الجيران . . فلقد كان الشاب عطر السيرة . .

وعـاشت الأسرة أحزان الدنيا كلها . . وبدأت الشرطة في فك رموز تلك الجريمة الغامضة . . أعادت سؤال الأم مرة أخرى . . جاءت بكل أصدقاء الابن . . سألت الجيران . . فلم تجد خيطاً يوصلها إلى الحقيقة!

* * *

بعيداً عن هذه الجـريمـة . . قامت الشرطة بهجوم على أوكار بيع الهيروين في المنطقة . . وقبضت على كل من وجدوه في هذه الأوكار . . سواء من صغار التجار أو من المدمنين الذين ترددوا على هذه الأوكار . . ووقفت السيارة تحمل الجميع إلى قسم الشرطة . ونزل الجميع في طريقهم إلى الحجز تمهيداً للتحقيق معهم . . كان الضابط الذي يحقق في جريمة قتل الشاب يجلس في مكتبه والباب مفتوح وهذا السيل من المنحرفين يمر أمامه . . وشاهد بينهم شاباً يتذكر جيداً أنه رآه من قبل . . أين . . لم يتذكر.

* * *

قام الضابط باستئذان ضابط مكافحة المخدرات أن يستجوب هذا الشاب، وجاءوا به، وتذكر . . إنه أحد الشباب الذين حقق معهم في جريمة قتل الشاب . . بل إنه جار الشاب . . شقته في مواجهة شقة الشاب . . وأم القتيل قالت:

ـ أبداً يا حضرة الضابط . . لا . . يستحيل أن أشك في جيراني . . إن الشاب الذي يسكن في مواجهتنا . . شاب على خلق.

واستبعد الضابط أن يكون هذا الشاب هو القاتل . . فإن شهادة الأم كفيلة بإلغاء الشك، وسأله الضابط:

ـ أعتقد أنك تذكر جيداً أننا التقينا.

ـ نعم . .

ـ أي نوع من المخدرات تعاطاه؟

وسكت الشاب ولم يرد . . فقام الضابط وصفعه بقوة على وجهه . . وقال له بشدة :

ـ عندما أسألك . . لا تقف كالصنم، عليك أن تجيب فوراً . . أيها الحقير . . أي نوع من المخدرات؟

ـ هيروين .

ـ منذ متى؟

ـ منذ أربع سنوات .

ـ لماذا قتلت أحمد أيها المدمن؟

ـ أنا لم أقتله .

ـ يا قاتل . . وصفعه بقوة مرة أخرى . .

ـ لقد عرفنا القصة كاملة من رفاقك .

ـ لا أحد يعرف القصة .

* * *

تأكد أن هذا الشاب هو الذي قتله . . كان الجو حاراً في هذا اليوم . . وكان الولد يرتدي قميصاً بأكمام طويلة . . ويغلق في نفس الوقت «ياقته» . . وقام الضابط بعصبية ومزق له القميص . . فوجد أن صدره ممزق بأظافر القتيل، فيبدو أنه قاومه بشدة . .

ـ اسمع يا ابن (. . . . .) تكلم وقل كل شيء بالتفصيل . . لم يعد هناك ما تخفيه .

* * *

كانت ليلة . . اجتمع فيها خمسة من أصدقاء السوء حول «كيس من

الهيروين» و«سرنجات» . . وتعاطوا كمية كبيرة من هذا المسحوق القاتل، ولعبت المخـدرات برؤوسهم تمـاماً، وبدأ الشيطان يفكر بدلاً منهم، أو أنهم قد تحـولوا إلى شياطين بفضل الهيروين، بدأ الحديث عن ضرورة إيجاد مال لشراء الهيروين . . لقد سرقوا أسرهم . . لقد كذبوا . . ولكن هم في حاجة إلى مبلغ كبير . . يغنيهم عن السرقات الصغيرة بعض الوقت . . فاقتـرح الجـار خطف جاره الشـاب عنـد عودتـه من المسجد بعد صلاة العشـاء . . وأن يقوم الآخر بالاتصال بوالدته ويطلب منها مليون جنيه . . وأخيراً استقر الرأي على سبعين ألف جنيه، وهو مبلغ يمكن للأسرة التي يعيش والدها في الخارج منذ سنوات ويقبض ذهباً كل شهر أن يدفعه بسرعة دون إبلاغ البوليس . . واستقر الرأي أنهم كلما احتاجوا إلى مبلغ آخر يتم اختـطاف الشـاب مرة أخـرى، حتى يحصلوا على المبلغ، ثم يطلقـوا سراحه . . وهكذا . .

وتم وضع الخطة . . وطريقة تسليم الأموال . . كما تم وضع ساعة الصفر.

* * *

قبـل ساعة الصفر اجتمعوا . . وتناولوا الهيروين . . وبدأ كل منهم يستعد لأخذ دوره.

ووقف الجار لجاره في الظلام أمام الجراج المهجور . .

وأثنـاء عودة الشـاب ـ بعـد أن أدى صلاة العشاء ـ هجم عليه في الظلام، بعد أن ارتدى قناعاً، وحاول أن يدخله بالقوة إلى الجراج ليقيده . .

إلا أن الشـاب كان قوياً . . وقـاومه . . ومزق القناع . . فشاهده . . وعرفه . . ودهش أن يرى جاره . . وصديقه . . يحاول اختطافه . . وعندما

عرف المدمن أن جاره قد اكتشف شخصيته . . ومن سوء حظ الشاب . . وجد المدمن قطعة من الحديد على أرض الجراج . . فسحبها وضربه بها على رأسه . . فسقط على الأرض يسبح في الدماء . .

رغم هذا . . رغم القسوة . . إلا أن الشاب مد يده لجاره . . وطلب إنقاذه . . وتوسل إليه وهو يئن من جراحه . . ولكن المدمن تركه وأسرع إلى بيته القريب ـ هكذا قاده تفكيره المعتل ـ وأحضر سكيناً . . وعاد إلى الجراج . . وكان الشاب مازال يتنفس . . ربما كان يحتضر . . وعندما رآه . . مد له يده . . ولكن المدمن ـ هكذا قاده الإدمان ـ تقدم نحو الشاب . . وذبحه . . ومات شاب من أفضل شباب حي الحسين . .

* * *

بعد هذا الاعتراف . . وبعد تحقيقات النيابة . . قام بتمثيل الجريمة وقررت النيابة تقديمه إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد . . وهي جريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام .

* * *

انتهى صديقي من سرد هذه المأساة . . وسألته :

ـ ما يمكن أن أفعل؟

قال :

ـ المأساة لم تنته بعد .

قلت : كيف؟

قال : لقد قدموه إلى غرفة المشورة . . فتم الإفراج عنه بكفالة ألف جنيه .

لم أصدق ما تقول . . كيف يمكن أن يطلق سراح قاتل اعترف

بجريمته؟

قال الصديق محمد هريدي :

ـ لهذا جئت إليك . . إن والده يخشى أن يهرب هذا المدمن القاتل خارج البلاد . . ويود أن تكتب تعليقاً على ذلك .

قلت : للأسف . . يصعب التعليق على أحكـام القضاء . . فهناك مادة تجرم التعليق على حكم قضائي .

وخرج الصديق مقهوراً من مكتبي . . فهو يخشى أن يهرب المجرم دون عقاب .

* * *

خرج صديقي وأنـا أفكر في أمر هٰذا القاتل لشاب بريء . . يطلق سراحه . . ويعود للإدمان . . وممكن أن يعود إلى جريمة أخرى .

وفكرت في نشر الخبر بشكل مثير دون أدنى تعليق . . نشرت الخبر بكل تفاصيله .

* * *

مازال الشاب مطلق السراح . . ولكن الصحف بدأت تتحدث عن المدمن الهارب من وجه العدالة . . ومن حسن الحظ، أن الشاب عندما أطلق سراحه، تصور أنه من الممكن أن يبقى في مصر ويمارس حياته، رغم ارتكابه جريمة قتل، فهو لم يقدم إلى المحاكمة بعد، ولم يحكم عليه بالإعدام، وتصور أن ثراء والده يمكن أن ينقذه من حبل المشنقة . . فمارس حياته العادية . . بل وتزوج . . وذهب إلى العريش يقضي شهر العسل . .

في هذا الـوقت تم تقديمه إلى محاكمة غيابية . . وأصدر القاضي حكماً بإعدامه . . وهنا قامت كل الصحف في معاونة الشرطة في البحث

عن القـاتـل . . وتم العثـور عليه في العـريش مع عروستـه يقضي شهـر العسل . . وتم القبض عليه . . وأعيدت محاكمته حضورياً، وتم الحكم عليه بالإعدام . . بل وتم تنفيذ حكم الإعدام في المدمن القاتل . . واستراح ضمير المجتمع الذي كان يئن حزناً على شاب بريء قتله جاره المدمن .

* * *

(٧)

عاد الزوج من عمله إلى بيته في مدينة القناطر الخيرية كعادته كل مساء، وفتح باب شقته ليجد مشهداً هو الرعب كله.. زوجته الشابة الجميلة قتيلة.. وملتصقة بها طفلتها البالغة من العمر أربع سنوات وهي قتيلة أيضاً.. وعلى بعد أمتار الطفلة الصغيرة الثانية وعمرها عامان.. أيضاً قتيلة، وحولهن بركة من الدماء.

إذن.. كانت مذبحة للأسرة.

فمن هو السفاح الذي قتل الأسرة بالكامل.

وصرخ الزوج.

ولطم الخدود كالنساء..

وسقط مغشياً عليه..

وفاق من هول الصدمة.. ليجد حوله الجيران والشرطة.. الجيران يبكون جارتهم الفاضلة الكريمة.. التي تفيض كرماً وخلقاً وفضيلة.. يبكون الطفلتين السابحتين في بركة الدماء هذه.

* * *

كان أول ما قاله الزوج للشرطة: هل تألمت الزوجة والطفلتان أثناء ارتكاب هذه الجريمة البشعة؟ هل توسلت الأسرة للقاتل أو القتلة؟ ولماذا

رفض أو رفضوا "توسلاتهم؟" . . ثم صرخ بهستيرية شديدة أعيدوا إليّ أسرتي .

تم نقل الزوج للمستشفى للعلاج من الصدمة، وبدأت الشرطة عملها لمعرفة أسرار هذه المذبحة البشرية. جاء تصور الجريمة من خلال معاينة الشرطة كالآتي :

القاتل أو القتلة، دقوا جرس الباب في الحادية عشرة صباحاً، فتحت الزوجة الباب، وجلس أو جلسا أو جلسوا في الصالون، ثم ذهبت إلى المطبخ وأعدت له أو لهما أو لهم أكواب الشاي، وقبل تناول الشاي تمت الجريمة بسكين حاد، حيث تم طعن الزوجة عدة طعنات، وبعدها بقليل تم ذبح الطفلة الكبيرة، ثم الصغيرة، التي زحفت وهي مذبوحة وتحتضر إلى جثة أمها، وقد فارقت الحياة بعد وصولها إلى جثة أمها.

والقاتل أو القتلة، لم يقصدوا السرقة، بل إنهم كانوا يبحثون عن شيء ما في خزانة الملابس بغرفة النوم، حيث وجدت الشرطة الملابس ملقاة على الأرض، وأبواب الخزانة مفتوحة، وبداخل الخزانة ألف وخمسمائة جنيه وبعض الحلي، ولو أن الجريمة قد تمت بسبب السرقة كان لا بد من اختفاء هذا المبلغ من خزانة البيت.

إذن . . القاتل أو القتلة معروفون لدى القتيلة بدليل أنها فتحت لهم الباب . . حيث لا يوجد كسور في الباب . . بل كوبان من الشاي في الصالون.

وإذن . . القتل تم بهدف آخر غير السرقة . . فما هو هذا الهدف؟

وبدأت الشرطة تضع احتمالاتها . . مهما كانت سيئة وغير منطقية!!

* * *

ربما يكون القاتل صديقاً للزوجة!!

وبـدأ سؤال الجيران، حيث أجمعـوا على أنها كانت مثالاً للزوجة الصالحة، والأم الفاضلة، ولم يشهدوا أبداً رجلاً غريباً يدخل بيتها.

وجاء تقرير الطب الشرعي، يؤكد أنها لم تمارس الجنس منذ فترة، وأنها ترتدي ملابس داخلية «محتشمة»، وذكرت بالتفصيل ما ترتديه للوقاية من الشتاء.

وذهب ضابط الشـرطة للزوج لسؤاله عن هذه المسألة فقط، حتى تستمر الشرطة في هذا الاحتمال أو أن تتوقف عنده.

ودخل الضابط إلى غرفة الزوج في المستشفى، فبادره الزوج وهو يبكي:

ـ هل عثرتم على القاتل؟

ـ في الطريق للعثور عليه.. بشرط أن تساعدنا.

ـ تحت أمرك.

ـ سؤال سخيف.

ـ تفضل.

ـ هل كنت تشك في سلوك زوجتك؟

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أنا الذي أسأل.

وثار الزوج في وجه الضابط، وقال: لاتلطخوا سمعة امرأة فاضلة، إن زوجتي كانت أشـرف من الشرف نفسه، أرجوك اتركني.. اتركني.. ألا يكفيكم ما أنا فيه.

وخرج الضابط.. وتم إلغاء هذا الاحتمال تماماً.

كانت الزوجة القتيلة فتاة جميلة تعيش مع أسرتها في حي شبرا، وحصلت على الثانوية التجارية، وكان الزوج يعمل مصوراً، حيث يملك استوديو للتصوير في نفس العمارة، وتعرف عليها، وتقدم لخطوبتها، وتزوج بها منذ خمسة أعوام.

استأجر الزوج شقة في القناطر الخيرية، التي تبعد عن القاهرة حوالي عشرين كيلو متراً، ورفض أن تعمل زوجته، فالحالة ميسورة والحمد لله، وطلب منها أن تتفرغ تماماً لمهمتها الأساسية كزوجة وأم.

وأنجب منها الطفلتين، وكان ـ حسب أقوال الجيران ـ حياتهما سعيدة، لا يعكر صفوها شيء، فالزوج مستقيم في عمله، يخرج صباحاً إلى شبرا حيث عمله، ويعود في المساء، لا يبرح البيت، يستقبل الأصدقاء وأقارب الزوجة، حيث كان بيته مفتوحاً دائماً لأقارب زوجته.

* * *

كان أكثر الناس حزناً على مصرع هذه الأسرة بهذه الطريقة الوحشية، الجيران وأقارب الزوجة، فلقد كانت عطوفاً جداً على أقاربها، وكانت تساعد شقيقها الأكبر وأسرته، حيث ضاقت به الحياة في السنوات الأخيرة، فإن أولاده الخمسة قد كبروا، وزادت احتياجاتهم زيادة شديدة، لا يستطيع مرتبه الصغير أن يوفر لهم كل متطلبات الحياة.

لذلك.. كان حزن هذه الأسرة شديداً.

حتى إن أكبر أبناء أخيها.. كان يبكيها بحرارة.. وقد تشاجر أكثر من مرة مع قائد فريق البحث من رجال الشرطة لأنهم لا يؤدون واجبهم بالسرعة المطلوبة لكشف هذا السفاح.

* * *

اتجـه البحث مرة أخرى إلى احتمال خطير. . أن يكون الزوج هو الذي قتلها. . لأنه لم يتمكن أن يثبت وجوده في مكان محدد وقت ارتكاب الجريمة. إلا أن مدير أمن القليوبية ـ حيث تقع القناطر الخيرية ـ قد طلب من قائد البحث استبعاد هذا الاحتمال، بسبب بسيط وهو: أن الزوج إذا فكر في قتل زوجته، فلن يفكر في قتل طفلتيه معها.

واحتارت الشرطة في أمر هذه الجريمة.

واحتار المجتمع في أمرها. . والذي تعاطف بشكل لم يسبق له مثيل مع هذه الأسرة.

وتحولت إلى قضية رأي عام. . والرأي العام يطلب ـ حماية لنفسه ـ كشف هذه الجريمة.

وانتشرت الشائعات عن وجود «سفاح» الأطفال في القناطر الخيرية.

* * *

تقدم أقارب الزوجة القتيلة ـ بقيادة الشاب الذي كانت تعطف عليه عمته القتيلة ـ وطالبوا قائد مجموعة البحث بالعمل بحماس أكثر، للعثور على القاتل السفاح.

قال الشاب لقائد فريق البحث:

ـ دم عمتي لن يذهب هباء. . إن لم تعثر عليه الشرطة. . فسوف أعثر عليه أنا. . وسأقوم بتقطيعه إرباً إرباً.

سقطت عينا الضابط على يد الشاب، فشاهد آثار وخز إبر.

فسأله: ما هذا؟

قال: آثار حقنة.

فرد الضابط: حقنة أم عدة حقن؟

فقال: هذه حقن.. أنا مريض بالسكر.. وأتناول حقنة أنسولين يومياً.. ثم عاد لثورته مرة أخرى:

- سيدي الضابط.. أرجوك.. اثأر من السفاح الذي قتل عمتي.

* * *

اتصل الضابط بطبيب صديقه، وسأله عن كيفية تناول حقن الأنسولين لمرض السكر فقال إنها غالباً ما تؤخذ في «الفخذ» وتحت الجلد، وأحياناً في البطن وأيضاً تحت الجلد، لأن متعاطي الأنسولين يأخذ منها كل يوم حقنة، وأحياناً حقنتين حسب درجة السكر في الدم.

فسأله: ولا تؤخذ في الكف؟

فضحك الطبيب ساخراً:

- هذه حقنة أنسولين.. وليست حقنة هيروين أو عينة دم!!

هيروين.. إذن هذا الشاب مدمن هيروين.. لقد قالها الطبيب دون أن يدري سراً للسؤال.

* * *

ذهب الضابط متخفياً، إلى حيث يقيم هذا الشاب، وإلى حيث يقضي وقت فراغه. فعرف في البداية، أنه عاطل وأنه دائماً على خلاف مع والده بسبب طلبه الدائم للمال، وذهب إلى المقهى الذي يجلس فيه، وسأل عن أقرب الأصدقاء له.. وقبض عليه لسؤاله في قسم الشرطة، كان يريد أن يعرف إجابة على هذا السؤال.. هل صديقه الشاب يتناول الهيروين أم لا؟

فقال الشاب: هيروين.. هو لا يقدر على ثمنه.. إنه يتناول الماكستون فورت.

والماكستون فورت هو أول سائل مخدر يصنع محلياً في مصر، وقد دخل مصر في بداية الخمسينات، عند وصول صيدلي لبناني يهودي اسمه زكي فضل الله حايك، وأعلن إسلامه، وتزوج من مصرية اسمها عطيات، وامتلك صيدليتين في القاهرة، وبدأ تصنيع هذا المخدر السائل كيمائياً، وكان يصدره إلى أسوان، لعمال السد العالي، على أساس أنه منشط حتى يزيد العامل من نشاطه وعمله، وقد تم ضبطه وحكم في البداية بإغلاق صيدليتيه، إلا أن زوجته عطيات ادعت أنها هي المالكة لهما، وتم فتح الصيدليتين، ثم ذهب وفتح صيدلية ثالثة في مدينة ميت غمر، وكوّن مدرسة كاملة لتصنيع هذا السائل المخدر، وتم ضبطه وإيداعه في السجن، حيث مات فيه، إلا أن عصابته أو مدرسته مازالت حتى اليوم تمارس هذا النشاط.

* * *

سأل الضابط نفسه سؤالاً.. وقد تأكد أن الشاب مدمن «الماكستون فورت».. ولكنه في نفس الوقت حزين على المذبحة التي حدثت لأسرة عمته.. فهل يمكن أن يرتكب جريمة فيمن يحب.. في عمته الشابة؟

وقبل أن يقترب منه.. اتصل الضابط بأحد أطباء علم النفس.. وسأله سؤالاً محدداً:

ـ هل يمكن أن يقدم المدمن على ارتكاب مذبحة في أعز الناس إليه؟

وكانت الإجابة:

ـ في كتاب رسالة الإمام، العدد السابع، الصادر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة أن الدكتور محمد وصفي في كتابه «القرآن والطب» جاء فيه أن الزنا والخمر صنوان، وتحف بهما كل الرذائل

وفساد النفس والخبث والغدر والنفاق والخديعة والرياء وغير ذلك من الصفات الخلقية الدنيئة، وإنك لا تجد مجرماً إلا ويسكر ولا تجد سكيراً غير مجرم، ومجمل القول، أن الخمور والمسكرات المخدرة للعقول والألباب أياً كان اسمها أو مادتها وجرمها، يؤدي تناولها لا محالة إلى ضرر بالغ بالمجتمع والفرد وتسوق متعاطيها إلى ارتكاب كثير من الجرائم في حق نفسه وجميع من حوله الأمر الذي يسوء به حاله ويصطلي بجرمه الأهل والعشيرة والصاحب».

* * *

اتصل الضابط بالعميد عصام الترساوي بإدارة مكافحة المخدرات بالقاهرة.. ودار هذا الحوار:

- هل الإدمان يؤدي إلى الجريمة؟

- أي نوع من الإدمان؟

- الماكستون فورت.

- هو أردأ أنواع الإدمان.. وإن سبعين في المائة من جرائم السرقة والقتل مرتكبها مدمن.

أضاف العميد الترساوي:

- أنت تسأل عن المجزرة التي حدثت في القناطر.. ابحث عن المخدرات وراء هذه الجريمة.. ستجد مرتكبها فاقد الوعي بسبب إدمانه أي نوع من أنواع المخدرات.

يقول العميد عصام الترساوي:

- إن معظم الجرائم البشعة.. واللا إنسانية.. يرتكبها مدمن

مخدرات . . إن من يجرؤ على قتل أمه . . أو ابنه . . أو شقيقه . . هو مدمن مخـدرات، فهو يرتكب هذه الجريمة وهو في حالة لا وعي . . حيث إن المخدرات تفقد متعاطيها كل القيم والمبادىء والتراحم والشرف .

* * *

تم القبض على الشـاب . . ووجـه له الضـابط تهمة قتل عمته . . وثار . . وهاج . . وماج . . وصاح قائلاً :

ـ حرام أن توجـه لي مثـل هذا الاتهام . . أنا أقتل عمتي . . وهي الصدر الحنون الوحيد لي . . أنا أقتل طفلتيها . . سيدي الضابط . . ليس لي في الدنيا غير عمتي . . أنا وحدي الذي كنت أحثكم على معرفة السفاح الذي ارتكب هذه الجريمة البشعة ومازلت أطالبكم بهذا .

ونظر إليه الضابط الذي لا يملك دليلاً واحداً على أنه القاتل غير أنه رجل أدمن الماكستون فورت .

ـ اسمع . . هناك مفاجأة لا تعرفها . .

ـ أرجوك إلا هذا الاتهام .

وبكى الشاب بكاء مراً . . وتركه الضابط يبكي . . واستمر فترة غير قصيرة في البكاء . .

ـ كفى . . اسمع المفاجأة .

وسكت الشاب . . وأنصت بشدة . . وأمسك الضابط بورقة . . وبدأ يقرأ .

ـ في الحـادية عشـرة صباحاً إلا قليل . . شاهدك صاحب الدكان الموجود أسفل البيت تدخل إلى بيت عمتك . .

وثار الشاب . .

ـ كذاب . . لم يحدث . .

وقال الضابط . .

ـ هذه ليست المفاجأة . .

ورد الشاب :

ـ وما هي المفاجأة . .

ـ لقد تم إنقاذ الطفلة الكبرى . . وتكلمت من ساعتين فقط . . وأشارت إلى صورتك بأنك القاتل . .

واتجه إليه الضابط . . دون أن يسمع منه كلمة واحدة رداً على هذه المفاجأة . . وصفعه بشدة على وجهه . . وبصق عليه . . وقال بثورة عارمة . .

ـ تقتل عمتك يا سافل . . تقتل طفلتيها . . لماذا؟ . . من أجل حقنة ماكستون فورت . . يا مدمن . . يا حقير . . يا جاحد . .

ونزع الضابط «أكمامه» . .

انظر إلى يديك . . في سبيل هذه الحقن القاتلة السامة . . تقتل عمتك . . قل لي فوراً تفاصيل الجريمة . .

وذهل الشاب . . وسأل الضابط :

ـ مستحيل . . إنقاذ الطفلة الكبرى . . لقد مزقتها بالسكين .

وأسعد الضابط بهذا الاعتراف . . وقال :

ـ أمكن إنقاذها . . وذكرت أنك القاتل . . وسوف تروي بالتفصيل الجريمة لوكيل النيابة . اجلس . . وسأحاول أن أساعدك . .

* * *

طلب الضابط له كوباً من الشاي . . وبدأ يروي الجريمة . . كان في

حاجة إلى مال لشراء مخدر الماكستون فورت . . وطلب من والده . . ولكن والـده رفض أن يعطيه . . أو لم يكن معه . . بدأت الآلام في جسده . . فذهب إلى عمته . . فتحت له الباب . . ثم ذهبت إلى المطبخ وأعدت له ولها كوبين من الشاي . . ثم سألته :

ـ هل تناولت إفطارك .

وعندما علمت أنه لم يتناول إفطاره . . ذهبت إلى المطبخ لإعداد الإفطار له . . فذهب خلفها . . وتناول سكين المطبخ . . وبدأ يطعنها . . طعنات متتالية . . وعندما شاهد نافورة من الدم تخرج منها أصيب بجنون على جنون . . وسقطت جثة هامدة . . والتفت خلفه . . ليجد الطفلتين . . كانتا تصرخان . . ولكنه لم يسمع صراخهما . . ذبح الطفلة الأولى . . وتأكد تماماً أنها ماتت . . ثم طعن الطفلة الثانية . . وفتح بطنها . . وكانت بعيدة عن أمها . . ثم دخل إلى غرفة النوم . . وبدأ يبحث في خزانة الملابس عن المال الوفير الذي سمع أنها تدخره . . فلم يجد سوى خمسين جنيهاً . . فأخذ الخمسين جنيهاً وخرج .

* * *

مثل الشاب الجريمة أمام رجال النيابة والشرطة، واعترف تفصيلياً بكيفية ارتكاب الجريمة . . ومن فجوره، طلب أن يرى ابنة عمته التي تم انفاذها والتي فتحت الباب أمام اعترافه . . فقال له الضابط :

ـ لقد قتلتها يا مدمن . . لم تترك فرصة لأحد أن ينجو من شرك الأسود .

* * *

استراح ضمير المجتمع للقبض على القاتل، واستراح أكثر عندما

صدر حكم محكمة الجنايات بإعدام سفاح القناطر الخيرية.

وانتصر أصحاب رأي إعدام مدمن المخدرات، لأن مدمن المخدرات يقتل الأبرياء.. فما ذنب تلك المرأة الفاضلة التي كانت تعطف عليه.. وما ذنب الطفلتين البريئتين؟ وازدادت صيحات المطالبة بإعدام المدمن.

* * *

(٨)

كاتب هذه السطور، عاش الرعب الكامل لمدة شهر كامل، فلقد قرأت وكتبت وقابلت والتقيت بكل أطراف الإدمان، والتقيت برجال مكافحة المخدرات، وأطباء الطب النفسي، والشباب الذي سقط فريسة في كمين الإدمان، ويمكن أن أقول إن علاقتي تنتهي بهذه الأطراف فور انتهاء اللقاء. وأعود أحمل هموم وطني من هذه المشكلة والتي أعتبرها أضخم تحد لأية حكومة ابتلي شبابها بها، فالبعض يرى أنها أخطر على المجتمع من الايدز، والبعض يرى أنها أشد خطراً من الأمن السياسي، والبعض يعتبرها معركة ساخنة وشرسة وتحتاج إلى جيش كامل يتم تدريبه حتى ينتصر عليها، ويسمى الانتصار في موقعه الإدمان وإنقاذ الشباب.

* * *

فجأة.. وبلا موعد.. وجدته أمامي.. شاباً نحيلاً.. في الرابعة والعشرين من عمره.. يقتحم مكتبي.. ويلقي التحية.. ثم يسألني:

ـ أنت فلان؟

ـ نعم.

ـ أنا طالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.. في قسم الإعلام.

ـ تحت أمرك.

ـ أنا مدمن هيروين . . وقرأت كل ما كتبته عن الإدمان . . وعرفت خطورته . . وأتمزق يومياً . . بين نداء جسدي له . . وبين خطورة ما قرأت . .

كان بالغرفة عدد غير قليل من الزملاء، وقد تحدث معي وكأني وحدي في المكتب، ثم بكى، بكى كثيراً، بكى أمام الجميع، طلبت منه الجلوس، وتصورت أنه جاء إلى مكتبي للاعتراف، طلبت منه الهدوء . . إلا أنه قال وهو يبكي :

ـ لقد جئت لك لتنقذني من الإدمان . . أنا أبحث عن الشفاء فلا أجده .

أحسست بالخوف من هذه المسؤولية الخطيرة، أمام تجربة تنفيذ ما أطالب به الشباب، وأمام مسؤولية إنقاذ شاب، جذبته كلماتي فجاء يطلب العون .

صدقوني . . عشت الرعب كله . . فما أخطر أن يضع شاب حياته ومستقبله أمانة بين يديك!

أحس الحاضرون أنني أريد الانفراد بهذا الشاب . . فتسللوا خارج المكتب . . وأصبحت وحدي في مواجهة شاب أراد الشفاء . . وانتابتني أحاسيس شتى . . هل جاء الشاب إلى الشخص الذي يمكن أن يساهم في شفائه؟ . . ولماذا لم يذهب إلى الأطباء لعلاجه بدلاً مني؟ . . ومن يكون هذا الشاب؟

* * *

سألته . . ما هي حكايتك؟

قال : أنا ابن فلان .

«وفـلان» واحد من أعظم سفراء مصر، وواحد من أشهر السفراء، وقدم خدمات جليلة لبلاده، سواء في إفريقيا أو في أوربا. وكنت قد التقيت به في إحـدى العـواصم الأوربية، فهـو رجل مثقف ثقافة عالية، مهذب ودبلوماسي ناجح، بل ورجل علاقات عامة من الطراز الأول، له أصدقاء في كل أنحـاء المعمـورة، وعنـدمـا قال إنـه ابن هذا السفير، تعاظمت المسؤولية أمامي، ذلك لأنني لا أنسى هذا اللقاء الحار الذي تم في بيت مع والـده في العـاصمة الأوربية، ولا أنسى سمو الحوار الذي دار بيني وبينه، ولا أنسى كرم الخلق الذي يملكه هذا الرجل. ولم أخطر الشاب أنني أعرف والده، وأخذت أستمع له:

ـ إنها مشكلة أبناء السفراء..

ـ كيف؟

ـ بدأت تعليمي في الولايات المتحدة، وكنت صبياً صغيراً، وانتقل والدي إلى إفريقيا، وبقيت في الولايات المتحدة الأمريكية في بيت عمي، رجل الأعمال المصري المشهور ـ نظراً لعدم وجود نوع التعليم الذي بدأته في مقر العمل الجديد لوالدي في إفريقيا ـ وكان بيت عمي في الولايات المتحدة أشبه بفندق فاخر، فيه كل شيء وكل الراحة.. ولكن فيه أيضاً كل الحرية.. وبلا رعاية.

كانت بدايتي مع «المخدرات» وأنا في السادسة عشرة من عمري، حيث أقمت حفلة في بيت عمي لزملاء المدرسـة الثانوي العالية، وجاء الأصدقاء ومعهم «المارجوانا».. وهو مخدر ليس بخطورة المخدرات التي تناولتها فيما بعد، ومنذ ذلك الحين، كنت أدخن «المارجوانا» مع الأصدقاء فقط، ومن حسن حظي أنني لم أعرف أي نوع من المخدرات، غير هذا

سألته: هل تعرف معنى المخدرات؟

قال: رغم أنني أتناولها.. إلا أنني لا أعرفها تماماً.

قال: المخدر يعني الكسل والضعف والفتور والرغبة في ألا تعمل شيئاً، والرغبة في النوم، والتعريف العلمي للمخدرات يا بني «هو كل مادة ينتج من تعاطيها فقدان جزئي ومؤقت في العقل، وتحدث فقداناً في الجسم، وهي المادة التي تؤثر على الجهاز العصبي وتضعف وظيفته أو تفقده هذه الوظيفة مؤقتاً» هذا يا بني هو التعريف العلمي للمخدرات.. بمعنى أن الله قد وهب الإنسان العقل، وميزه بذلك عن بقية المخلوقات، فجاء الإنسان عن طريق المخدرات يفسد معجزة الله.

قال: ومن الذي خلق المخدرات؟

قلت: الله قد خلقها.. وخلقها لفوائد إيجابية هامة في مسيرة البشرية.. خلقها للعلاج وليس الإدمان.. فجاء الإنسان ليحول إيجابيات خلقها إلى مادة مدمرة لعقل الإنسان.

قال: ولماذا لا يعدم تجار المخدرات؟

قلت: لقد ذهبنا بعيداً.. أكمل قصتك!

* * *

في العشرين من عمري، انتقلت مع والدي إلى عاصمة أوربية، والتحقت بالجامعة الأمريكية في هذه العاصمة، وكانت مفاجأة مذهلة لي، إن نسبة غير قليلة تتعاطى الهيروين، نسبة قد ترتفع إلى خمسين في المائة من البنات والشباب، وكان يتساقط في العام ما لا يقل عن عشرة من الطلاب يموتون من شدة الإدمان.

سألته: وهل علمت لماذا يموتون؟

قال: من الإدمان.

قلت: إن الموت هو نهاية طبيعية وعلمية لمتعاطي الهيروين، فلو قرأت مثلاً: كتاباً عن المخدرات للدكتور محمد محمود الهواري ستجد فيه أن الهيروين يتصف بضعف قدرته المنومة، إلا أنه أكثر سمية (أي سام جداً) بخمس مرات من المورفين، ويمتاز بتأثيره الوحشي، وقد يكون معاكساً في فعله لتأثير المورفين والأفيون، منوماً عن الهدوء والسكينة والصمت المشاهد عند تعاطي المورفين والأفيون، تتظاهر الصفات الهيجانية البهيمية الشرسة عند تعاطي الهيروين، وهو سريع التأثير في المدمن وأكثر سرعة من باقي المركبات الأفيونية، وفترات الشعور بالحاجة متقاربة جداً، وقد يحتاج المدمن إلى تجديد الحقنة كل ٣ ساعات.

* * *

الشاب يستمع بانتباه شديد.. وكأنه لا يعرف ماذا كان يفعل.. وأكملت بحماس أشد:

ـ إذا تناول المتعاطي سنتيجرامين من الهيروين دفعة واحدة قد يؤديان به إلى الموت.. وعندما يغرق المتعاطي في الإدمان، فإنه يحتاج كل يوم أكثر مما قبله.. حتى يأتي إلى لحظة الحقنة القاتلة.. وهو لا يعلم أن هذه الحقنة هي آخر حقنة في حياته.. فيأخذها ويموت.

ـ قال بتأثر بالغ: لا أريد أن أموت.

* * *

عاد الشاب يروي بقية روايته، لقد عرف الهيروين مع شباب الجامعة الأمريكية في العاصمة الأوروبية، وبدأ بالشم وانتهى بالحقن في الوريد،

وكان والده لا يتصور إطلاقاً أن ابنه يتعاطى الهيروين، وذات مرة، شاهد والده اصفراراً في عيني ابنه، وتصور أن ابنه مريض «بالصفراء» وخاصة أنه مرض بها من قبل، فأخذه إلى الطبيب الذي قام بتحليل الدم، وأخطره بأن ابنه الشاب يتعاطى مخدرات، وأنه تعاطى مخدرات منذ ساعات فقط.

وكانت صدمة شديدة على والده..

وكانت مأساة على والدته..

والوالد مثقف ويعرف أن الموت هو النهاية العلمية للإدمان.

تحدث الوالد مع ابنه بصراحة شديدة، طلب منه أن يعترف بكل رحلته مع الإدمان، وأخبره بكل تفاصيل الرحلة من المارجوانا حتى الهيروين.

* * *

على أول طائرة متجهة إلى لندن، سافر الولد مع والده، للعلاج في إحدى المصحات في جنوب إنجلترا، وأودع الوالد ابنه في المصحة وعاد إلى مقر عمله، وكان يزوره أسبوعياً في المستشفى أو المصحة. يقول الشاب:

ـ على مدى خمسة وأربعين يوماً، شفيت تماماً، بدأوا يحدثونني عن مشاكلي، ولم يكن لدي أي مشكلة، ثم بدأوا في سحب المخدر من جسدي شيئاً فشيئاً، وكنت أعاونهم في العلاج، فلقد حزنت لأنني أرهقت والدتي وعذبتها، وحزنت لغضب والدي، وخاصة أنني أحسست بأنني أشارك في هدم مستقبل الأسرة بأكملها. خرجت سعيداً من المصحة وعاهدت والدي بأنني لن أعود إلى هذا المخدر مهما حدث، وأحسست بفارق هائل بين حياة الإدمان، وحياة الأصحاء.

سألته: ما الفرق؟

قال: المدمن ليس له أي مطالب في الحياة سوى أن يجد الهيروين، وعندما يجده، فهو قد وصل إلى منتهى الطموح، وبلغ الهدف الذي يسعى إليه. المدمن يفقد كل عواطفه، فهو ممكن أن يخون صديقه في سبيل جرعة هيروين، يفقد الرجولة والشهامة. والمدمن يرى الحياة سوداء، ولا يوجد فيها أي نوع من الإغراء. ولكن بعد أن شفيت وجدت أن في الدنيا أشياء كثيرة جميلة، فيها الأمانة، فيها الحب، فيها الأخوة والأبوة والأمومة، فيها التعاطف والتكامل، فيها الأمل والطموح.

* * *

عاش الشاب سعيداً بالشفاء، قال لي جملة من أهم الجمل التي سمعتها عن الفرق بين المدمن وغير المدمن، قال: «إن المدمن يرى العالم أبيض وأسود.. وغير المدمن يراه بألوانه الطبيعية المبهرة.. المدمن يرى الشيطان.. وغير المدمن يرى الله في كل حياته»..

ولكن.. عاد الشاب إلى الجامعة الأمريكية.

عاد إلى رفقاء السوء والهيروين..

عاد ليدفعوه قهراً إلى أوكار الهيروين.

وعاد الشاب إلى تعاطي الهيروين.

يقول: كنت أعرف العلاج في مرحلة النقاهة.. وهي في تصوري.. أخطر المراحل.. إن رغبتي في هذه المرحلة للمخدر رغبة هائلة.. نداء يصرخ في جسدي بدون ألم.. ولكنه نداء قوي.. ولا علاج لعدم تلبية هذا النداء إلا بتغيير كل أصدقاء الإدمان.. والالتصاق بغير المدمنين، ورغم إحساسي بهذا الخاطر عقب عودتي من جنوب إنجلترا

إلى العاصمة الأوربية، إلا أنني لم أخطر والدي بحاجتي إلى تغيير كليتي وأصدقاء السوء.. ولو أخبرته.. لفعل.. ولكن لا أدري حتى هذه اللحظة لماذا لم أفعل؟ وعدت إلى الهيروين، كأعنف ما تكون العودة، سرقت من أموال والدي لأنفق على الهيروين. وكانت سعادتي بالغة عندما نقل والدي إلى القاهرة، إلى وزارة الخارجية.

* * *

في القاهرة، تصور أنه سوف يتوقف عن الإدمان، ولكن في نفس يوم وصوله بدأ يبحث عن الهيروين حتى وجده، كانت حالته قد فضحته عند والده.

يقول الشاب: كنت أحس بالاختناق.. وبعدم وجود أي نسيم رغم أننا في شتاء قارص.. كنت أشعر أنني على حافة الموت.

قلت: هل تعرف مراحل الإدمان؟

قال: عشتها.. ولا أعرفها.

قلت: في البداية تشعر بالانتعاش.. ثم أحياناً بالقلق.. وأحياناً بالجوع، هذه هي البداية ثم تعرق بلا سبب، وتتثاءب كثيراً، وتدمع بلا سبب، ثم يحدث سيلان من أنفك، ثم تدخل في مرحلة جديدة حيث تتسع حدقة العين وتشعر بقشعريرة في الجلد، وتحس بالبرد في الحر، وتحس بالحر في البرد، وتنتاب عضلات جسدك هزات بلا سبب، وتشعر بآلام في كل عظام جسدك، وتفقد الشهية تماماً، ثم تدخل مرحلة أشد خطورة فبالإضافة إلى كل ما سبق، تصاب بالأرق والتوتر الدائم، وزيادة ضربات القلب، وانهيار في الصحة العامة، والغثيان شبه الدائم وتبدأ في فقد الوزن بطريقة ملحوظة جداً، ثم خمول في الأعضاء التناسلية وإصابة

بمرض السكر. . ثم الموت.

قال: عشت كل هذه المراحل.

قلت: وما الذي أنقذك من الموت؟

قال: والدي. . لقد عذبته كثيراً. . أدخلني مصحة في القاهرة. . وعشت فيها شهراً. . أخرجوا من دمي سموم الهيروين. . وكما حدث لي في جنوب إنجلترا. . حدث لي في مصر. . عدت سليماً. . ولكن. . عدت هذه المرة إلى تعاطي الهيروين برغبتي فور لقائي بمجموعة الإدمان بالجامعة الأمريكية.

أضاف الشاب: والدي لا يعلم أنني عدت. . وخشيت أن ألجأ إليه للمرة الثالثة. . فجئت إليك. . لتنقذني من الموت.

وبدأت معه المحاولة. .

في البداية. . ذهبت إلى والده. . وأخبرته بعودته. . وطلبت منه ألا يعرف أنك تعرف. . حتى تساهم معي في علاج هذا الشاب. . وبدأت معه حواراً لكي أعمل على تقوية إرادته، وقدمت له نماذج من هؤلاء الذين ذهبوا ضحية الإدمان، ولقد تزامن ـ من حسن حظه ـ هجوم عظيم وشرس على أوكار بيع هذه السموم في مصر، وسقط بعض المدمنين في أيدي الشرطة، ومن بين الذين سقطوا واحد من أصدقائه، وأخذته معي ليشاهده وهو في حجز إدارة مكافحة المخدرات، وشاهده وهو مسلوب الكرامة، يمكن لأي حارس من حرس الإدارة أن يبصق في وجهه بل يمكن أن يضربه على قفاه، كان منظر صديقه مثيراً للغثيان، وشعر أنه يمكن أن يكون في موقعه، وأخبرته أنه لو تردد على أوكار بيع المخدرات، فقد يسقط في أيدي رجال مكافحة المخدرات وهم لا يرحمون قتلة الشباب من التجار أو هؤلاء

الذين ينتحرون.

* * *

في البيت، كان يشعر بالألم، كان يئن منه، وأحياناً يصرخ، ووالده يعرف السبب، كان الوالد يدخل عليه حجرته يجده سابحاً في بحور من العرق والألم، فيسأله عن السبب فيقول: مغص شديد في أمعائي.. وكان الوالد سعيداً بأن ابنه بدأ رحلة التحدي.. ورحلة التحدي تبدأ بتحمل آلام انسحاب المخدر من الجسد.. قد تكون آلاماً مبرحة.. ولكن تحملها هو الأمل في الشفاء.

نعم.. أسبوع واحد فقط من التحمل.

نعم.. أسبوع يفصل بين الحياة والموت.

نعم.. أسبوع واحد هو الحد بين إنسان وحيوان.

ما كان الشاب يخرج من بيته إلا للحضور للقائي.. حتى إنه طلب مني أن أسمح له بحقنة هيروين واحدة وأخيرة.. وأنا أعلم أنها لن تكون الأخيرة.. بل ستكون الأولى في رحلة العودة والموت.

ولكن.. سعدت أنه طلبها مني.. فلقد كان بإمكانه أن يجدها.. ولكنه يتأرجح بين المقاومة والعودة.. وهو يريد واحداً يجعله يميل وبشدة إلى المقاومة.. وكان هذا الشخص هو كاتب هذه السطور.

* * *

بقيت مشكلة تشغلني جداً وهي تغيير أصدقاء السوء، إن الشاب يخشى أن يذهب لشراء الهيروين من أوكار بيع المخدرات خوفاً من السقوط في أيدي الشرطة، ولكن من الممكن أن يجد هذا عند الأصدقاء.

تذكرت أنه على وشك التخرج من الجامعة الأمريكية قسم إعلام،

ووجدت له عملاً بإدارة العلاقات العامة في أحد الفنادق الكبرى، ولم أجد صعوبة على الإطلاق في تعيينه، فلقد كان اسم والده يسبقه، وتلك اللغات التي يعرفها جيداً عاملاً مساعداً في تعيينه.

كان مدير العلاقات العامة بهذا الفندق صديقي.. وأخبرته بضرورة شغله معظم الوقت في أعمال هامة.. فكلفه أول ما كلفه بالإعداد لمؤتمر هام يعقد في الفندق، يشترك فيه وزراء الصحة العرب والأفارقة، ووضع له الخطة، وترك له حرية التنفيذ.

وجاءني خائفاً من التجربة.. قلت له:

ـ أنت جدير بإقامة هذا المؤتمر.. وسوف نصفق لك إذا نجحت في إعداد هذا المؤتمر.

ذهب إلى والده.. وطلب مساعدته في تنفيذ هذا المؤتمر.. إلا أن والده.. قال له.. إن تنفيذه ـ الشاب ـ سوف يفوق تنفيذ والده، وطلب منه الاعتماد على نفسه، وشجع فيه الاعتماد على نفسه.

* * *

كان المؤتمر في حاجة إلى إعداد جيد.. من إرسال الدعوات.. إلى حجز الأماكن.. إلى طباعة الأبحاث.. إلى الإشراف على سيارات الوفود.. إلى معرفة مواعيد وصولهم إلى القاهرة.. إلى التنسيق مع الجهات المشتركة في استقبالهم.. إلى إعداد قاعة المؤتمر بالصوتيات.. إلى الحفلات التي ستقام لهم بعد الانتهاء من المؤتمر.

وعقد المؤتمر.

ونجح الشاب في عقد المؤتمر.

وأحس أنه أصبح له قيمة..

وأحس بالفرق بين الإنسان والمدمن.

وتخرج في الجامعة.

وترك أصدقاء السوء طلاباً حتى الآن.. فاشلين.

وهـو الآن.. يشق طريقه نحو إدارة العلاقات العامة كلها في هذا الفندق.. بل إنني أتوقع أن أسمع قريباً أنه أصبح مديراً لهذا الفندق.

هذه قصة الشاب الذي قهر الهيروين.

* * *

(٩)

في العام الماضي، دخلت مريضاً إلى مستشفى مصر الدولي، تحت رعاية الدكتور مصطفى المنيلاوي، لأجري بعض الفحوص الطبية، والدكتور المنيلاوي صاحب شعبية واسعة حتى خارج دائرة الطب والمرضى، فاهتمامه البالغ ـ بالإضافة إلى الطب ـ هو قضية شباب هذا العصر، وأينما تجد الدكتور المنيلاوي، تجد حول كوكبة من النجوم، وفي هذا اليوم، كان حوله الدكتور خيري صابر أستاذ الجراحة والدكتور صالح ثابت أستاذ الطب النفسي، وعدد من الأطباء الشبان.

ومادامت الجلسة قد جمعت رجلاً مهتماً بالشباب كالدكتور المنيلاوي، ورجلاً مهتماً بالطب النفسي كالدكتور ثابت، فإن الحديث لا بد أن يكون عن قضية «المخدرات»، فإن الأطباء يعرفون حقيقة حجمها أكثر من المسؤولين، وأكثر من رجال مكافحة المخدرات، فهم يرون المدمنين، ويتحدث إليهم المدمنون بلا خوف من قانون أو عقاب، ومن خلال هذا الحديث يمكنهم تصور حجم المشكلة.

واسمحوا لي أن أنقل لكم هذا الحوار.

* * *

ـ د. ثابت . . هل قضية الإدمان . . قضية مصرية فقط؟

د. ثابت: لا.. ليست مصرية فقط.. بل هي عربية أيضاً.. لقد جاءني أكثر من شاب عربي لعلاجه من الإدمان.

هل مصر.. والمنطقة العربية مستهدفة؟

د. منيلاوي: طبعاً.. وبالتحديد من الصهيونية العالمية.. فإن أعز ما تملكه أي دولة ليس الطاقة البترولية.. ولكن الأهم هو الطاقة البشرية.. وجوهر هذه الطاقة في الشباب.. فتأتي المخدرات لتسلب من الشباب طاقتهم.. ومن الوطن اقتصاده.

ثم ألقى الدكتور مصطفى المنيلاوي بقنبلة عنيفة:

ـ لقد سمعت أن السلطات الإسرائيلية تسمح لمريضات الإيدز الإسرائيليات بالسفر إلى مصر.. لنقل هذا المرض اللعين إلى شبابها.. فإذا كانت إسرائيل ترتكب هٰذه الجريمة اللا إنسانية.. هٰذه الجريمة الوحشية.. ألا ترتكب جريمة تصدير المخدرات إلى مصر؟!

ـ د. ثابت.. ما حجم المشكلة؟

قال وكله ألم وأسى:

ـ حجم خطير جداً.. يصعب تحويله إلى أرقام.. سأروي لك حكاية مكررة عشرات المرات.. يأتي إليّ مدمن.. وأقوم بعلاجه.. أي أستخرج المخدر من جسده.. وأستخرج حاجته إلى المخدر.. وبعد فترة أسأل عنه.. وأعلم أنه مات.. فأعلم أنه خرج.. وعاد إلى نفس المناخ الذي دفعه إلى الإدمان.. فعاوده.. فدخل في دائرة الموت.. ومات.. وأحياناً أرى صورته في صفحة الوفيات تحت عنوان أصبح ثابتاً «فقيد الشباب»..

والحل؟

د. خيري صابر: عندما يأتي لي مريض سرطان.. فلكي أنقذه.. لا بد من بتر موقع السرطان حتى لا ينتشر. مرة جاءت إلي سيدة غاية في الجمال.. ولديها سرطان في الثدي.. فاقترحت على أسرتها سرعة قطع «الثدي».. فقالوا.. سوف تشوه.. أليست هذه قسوة؟.. ألا يوجد علاج بديل؟ قلت لهم: للأسف لا يوجد علاج غير بتر الثدي، وإلا انتشر في كل الجسد.. وماتت هذه السيدة الجميلة.. وطبعاً تم بتر الثدي.. في هذه القضية، فإن إعدام كل من له صلة بقضية المخدرات هو في حد ذاته رحمة بالمجتمع، وأعتقد أن إعدام المهرب، والبائع، والمدمن الرافض للعلاج، هو حماية لكل جسد المجتمع، لا أعتقد أن هناك حلا آخر.

ـ د. ثابت.. قل لي.. لماذا يموت المدمن؟

د. ثابت: هناك أسباب عديدة وكثيرة.. باختصار لا حل إلا سرعة التوقف عن الإدمان.. أو الموت أو الانتحار أو الجنون للمدمن.

* * *

قطع هذا الحوار الممتع والمخيف، حركة غير عادية في المستشفى، لقد جاء شاب في سيارة إسعاف، وتم نقله فوراً إلى غرفة العناية المركزة، وهو في حالة سيئة للغاية.

ـ من هذا الشاب؟

قالت الممرضة وهي تنقل لي الأخبار:

ـ هو ابن مليونير.. عنده هبوط في القلب.. وهناك محاولات لإسعافه.

قلت: مرض القلب لكبار السن.

قالت: لم يعد الأمر كذلك في هذا الزمان.

عفواً يا سادة . .

أحسست بوجود علاقة بين نقل هذا الشاب إلى غرفة العناية المركزة، وقضية المخدرات، ذلك أنني قد قرأت وسمعت أكثر من مرة، أن المدمن قد يحدث له هبوط في القلب نتيجة جرعة زائدة من المخدر، قد يفارق الحياة على إثرها، لذلك، طلبت من الممرضة أن تمدني بأخبار هذه المريض.

* * *

فعلاً . . هو مدمن.

وفعلاً . . حدث له هبوط في القلب.

ولكن الممرضة لم تعلم ما نوع المخدر الذي كان يتناوله، وقد جاء والده بعد أن علم بنبأ وصوله إلى المستشفى، وأمه خارج غرفة العناية المركزة تبكي، ويتم الآن نقل بلازما إلى دمه، وقد يعيش، وقد يموت.

* * *

جاء الطبيب لزيارتي . . وكان سؤالي عن هذا الشاب . . فقال ببساطة شديدة . .

ـ آه . . المدمن . . لقد مات.

قلت: بهذه البساطة . . والسهولة.

قال: أنا أتصور أن كل مدمن يموت لا يستحق أن يحزن عليه الإنسان . . فكل العالم يعلم جيداً أن الإدمان نهايته الحتمية الموت . . فلماذا يتعاطى الإنسان المخدرات وهو يعلم أن الطريق هو الإدمان فالموت؟

قلت: الشاب يرغب دائماً في تجربة كل مجهول.

قال: لم تعد المخدرات مجهولة.. هل سمعت أن إنساناً حاول تجربة الانتحار.. تعاطي المخدرات على سبيل التجربة.. هو الانتحار على سبيل التجربة.

قلت: ربما لديه أسباب دفعته إلى الإدمان.

قال: لا أسباب.. القصة مكررة.. والده ثري جداً.. يعطيه مالاً بلا حساب.. لم يعطه قيماً دينية أو أخلاقية.. اجتمع بأصدقاء السوء.. جرب الشمة الأولى أو الحقنة الأولى من مسحوق الهيروين.. وأدمن.. ومات.

ثم قال: ولكن هذا المدمن مات من شيء آخر.

قلت: ما هو؟

قال: من شوائب الهيروين.

* * *

كنت أتصور أن تجار الهيروين عندما يخلطونه بمواد أخرى، فإن هذا يجعل متعاطيه أقل إدماناً ممن يتعاطى الهيروين النقي، حتى مات هذا الشاب لتعاطيه الهيروين بالشوائب. يقول الدكتور عادل صادق في كتابه «الإدمان له علاج» ما نصه: «بعض المدمنين يموتون فجأة بدون سبب ظاهر أو بسبب التسمم الحاد بالجرعة الكبيرة، حيث يفقد السيطرة على نفسه.. والمشكلة أن المتعاطي لا يعرف بالضبط الجرعة أو التركيز في الكمية التي يتعاطاها، فالأمر يختلف هنا عن العقاقير التي تصنع لأغراض طبية حيث تعرف بالمليجرام أو حتى بالميكروجرام تركيز المادة الفعالة في قرص ـ أو شمة ـ أو في كل مليمتر، ومن ثم تحسب الجرعة حسب سن ووزن المريض، ومدى احتياجه للعقار، المدمن البائس يستنشق أو يبتلع

أو يحقن نفسه بمواد لا يعرف تركيبها الدقيق، ولا يعرف تركيز المادة
الرئيسية فيها، وكل المواد التي تباع للناس مغشوشة، فالتاجر يريد أن يحقق أكبر ربح، وكل الظروف مهيأة له لكي يغش، فهو لا ضمير له، بل هو أسوأ خلق الله، والغش سمة أساسية في سلوكه، تعاملاته وعلاقاته، ويظل يغش ويغش إلى الحد الذي بعده لا يوجد غش وإلا تبور تجارته، والمشتري المحتاج، والذي يشتري في الظلام وعلى استعداد لأن يدفع أي ثمن، هذا المشتري وفي ظروف شراء المخدرات لا يفحص البضاعة التي يشتريها ومكره أن يقبل أي شيء حتى وهو يعرف أنه مغشوش، بل عليه أن يتقبل شاكراً حامداً خافض الرأس ذليل النفس، والشوائب عادة هي سبب الموت المفاجيء، وخاصة إذا كان التعاطي عن طريق الاستنشاق أو الحقن في الوريد، وبعض الشوائب لها التأثير الضار المباشر على القلب مثل «الكينين» وشوائب أخرى مثل الأسبرين والسكر، والموت قد يحدث بسبب مضاعفات خطيرة تحدث للمتعاطي مثل الغيبوبة وقصور الدورة الدموية عن الوصول للمخ، وحدوث مضاعفات عصبية خطيرة مثل العته والشلل والتهابات المخ، هذه المضاعفات قد تؤدي إلى الموت السريع وقد تظل مزمنة مع المريض مدى الحياة وقد تتحسن، تدريجياً. نسبة غير قليلة من المدمنين يموتون، ولا فرق كبير بينهم وبين المنتحرين، يموت المدمن وهو أبأس الناس وأتعسهم، يموت وهو ينادي من أجل المساعدة، يموت وهو يعاقب بإدمانه وهلاكه هؤلاء المحيطين به، يموت وهو يبحث عن السعادة الضائعة، حصل على زيفها اليوم ولكنه يموت بسببها غداً.

* * *

مات هذا الشاب.. وترك مأساة قاسية.

كان الشـاب هو الابن الوحيد لرجل بلغ الستين من عمره، وامرأة تجاوزت الخمسين من عمرها، لم يعد لهما في العمر بقية، فلقد كان هذا الشاب الذي مات بسبب شوائب الهيروين هو المستقبل بالنسبة لهما، وهو الدافع للاستمرار في الحياة. . وهو الدافع للرجل لكي يعمل ويكون ثروة، ويقيم المشـروعات، فكل هذا لو تركه، لن يتركه للشيطان، بل سيتركه لابنه. . لامتداده. . لمن سوف يحمل اسمه من بعده.

لقـد تابعت هذه الأسـرة المنكـوبـة، من خلال طبيب يعمـل في مستشفى مصر الدولي، وهو واحد من أقرباء الأسرة، وهو الذي حاول إنقاذ الشاب ولكن دون جدوى.

* * *

الأم كادت تفقـد صوابهـا تمـاماً، نصحوها بالحج إلى بيت الله، فسـافـرت إلى المملكة العربية السعودية، ولم تعد حتى الآن، قيل إنها تجلس في أحـد أروقة المسجد الحرام، تؤدي الصلاة، وتطلب من الله صبح مساء، أن يُقضى أجلها، لكي تلحق بوحيدها.

والأب في القاهرة. . يقضي وقته في المساجد. . ويقول إنه لو عرف المسجد. . لما حدث له ما حدث. . كيف؟

كان قد عرف ابنه طريق المسجد. . وكان هذا المكان الطاهر. . كفيلاً بحماية ابنه من كل سوء.

لقـد تبرع الرجل بالجانب الأكبر من ثروته لمكافحة المخدرات، وأصبح واحداً من دعاة مكافحة المخدرات، وهو حالياً لا يقرأ إلا كتاب الله، وبعض كتب الدين وكل ما يجده من كتب مكافحة المخدرات والإدمان.

عندما تزور القاهرة . . أرجوك أن تؤدي الصلاة في مسجد صغير بحي منية الروضة . . في داخل المسجد . . ستجد رجلاً نحيلاً . . يرتدي جلباباً أبيض . . ودائماً في يده كتاب . . ستجده إما ساجداً . . أو قارئاً . . إذا اقتربت منه، فسيمد إليك يده مصافحاً . . وسوف يبادرك بسؤال غريب فلا تدهش له . .

- هل ابنك . . شاب؟

فإذا أجبت بنعم . . فسيطلب منك أن تأتي به إلى المسجد دائماً . . ألا تغدق عليه مالاً وفيراً . . ألا تبتعد عنه كثيراً . . أن تستمع إلى مشاكله . . فإذا سألته لماذا؟

- أعداء الله يا سيدي يتربصون اليوم بالشباب .

- ومن هم أعداء الله؟

- تجار المخدرات . . أرسلهم الشيطان لقتل شبابنا ثم . . يبتسم ابتسامة الواثق من نفسه . . ويقول :

- ولكن نحن . . أعطانا الله حصناً حصيناً لا يطوله هذا الشيطان الماكر . . ورغم ذلك ننسى وجود هذا الحصن . . ولا نعرفه إلا بعد أن يطولنا الشيطان . . فنعيش في ندم .

- وما هو هذا الحصن؟

يشير إليك على حوائط المسجد . .

- هذه الدار يا سيدي . . هي حصن الأمان من الشيطان، انظر إلى كل من بداخلها . . لن تجد مدمناً واحداً . . المدمن كافر لا يعرف طريق الله .

* * *

سيتحدث إليك طويلاً في هذه القضية.. سيذهب إلى نهاية المسجد.. حيث توجد مكتبة صغيرة هو أقامها في المسجد.. واشترى عدداً من الكتب.. سيقرأ لك مثلاً في كتاب الدكتور محمد محمد الهواري.. سيقول لك: «لقد اشتد نهم الشباب المعاصر للمخدرات، وصاغ حياته ضمن فلسفة خاصة تتفق مع تحقيق هذه الرغبات والهرب من وطأة المدنية المعاصرة، وأصبحت أوروبا غارقة في بحر من الخمور، وتكاد تختنق بجوها المحموم المفعم بالسموم التي تنفثها مداخن المصانع والمداخن البشرية التي تحرق في رئتيها وفي دوراتها الدموية كل ما يقع تحت أيديها من العقاقير المفسدة للمزاج والطباع والمخربة للأعصاب والتي لا تدع عضواً من الأعضاء إلا وتمسه بأذية من الأذيات، والذي يثير عجباً أن نجد كثيراً من مؤسسات البحث العلمي المترفة تصرف الأموال الطائلة بمليارات الدولارات لكي تتعرف بدقة على الأسباب التي تدعو الشباب وباقي أفراد المجتمع إلى الإدمان، وإدمان المخدرات بصفة خاصة، والعلة كامنة في الوقاية أولاً ثم في العلاج، ولو بذلت المؤسسات العالمية عشر ما تبذله المؤسسات المترفة، وسارت في البحث عن طرق الوقاية لنجت البشرية من هذا الوحش الكاسر».

* * *

ويتوقف الرجل عن القراءة، ويتحدث هو عن إعجابه الشديد بوصف المخدرات بالوحش الكاسر، ثم يقول:

- رغم إعجابي بهذه الصفة، إلا أنها ليست دقيقة، فالمخدرات هي إبليس العصر، إنها تأتي إلى الشباب وتغتالهم دون أن يدري أحد، لقد كان عندي عزيز، هو أعز ما في الحياة، كنت أتصوره ملاكاً، ولكن إبليس اغتاله

دون مقدمات، فوجئت بالجيران، يتصلون بي تليفونياً، وإذا بهذا العاير في غرفة العناية المركزة، ودخل الأطباء مع إبليس في سباق، ولكن إبليس كسب منهم المعركة.

ثم ينظر إليك.. وفي عينيه بريق من احتباس الدموع.. ويقول لك:

- لقد أطلت عليك.. دعنا نقرأ هذه الفقرة الهامة: «أليس من العجب أن تكون هناك مؤسسات علمية كبرى لمكافحة السرطان، تمتلك نسبة عالية من الأسهم في عدد من مصانع التبغ في العالم، لقد أدرك كثير من العلماء والباحثين، أنه ليس هناك مهذب لطبائع الشعوب كالدين، الذي يحمي الإنسان ويحيطه بسياج من الوقاية، يحميه من أن يقع في الخبائث، بعد أن يغرس في نفسه قواعد الحلال والحرام، ويعرفه على المباح والمحظور، وبدون ذلك ستظل البشرية تتخبط في تجاربها بين نظام وآخر حتى تعود إلى حظيرة الدين، وهنا تتجلى عظمة الإسلام الذي جعل من أهم مقاصد الشريعة أن يحافظ الإنسان على عقله ونفسه وماله ووقته، وألا يلقي بنفسه في التهلكة، وحذره من أن يقرب دائرة الحرام، بل وأن يقترب من دائرة المشتبهات حتى يستبرىء لدينه وماله وعرضه».

* * *

سيقول لك والدموع في عينيه: سيدي كن قدوة لابنك، اذهب معه إلى المسجد، وبيّن له الحلال والحرام، لا تبسط يدك له كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً، كل شيء بالحساب والضرورة.

ثم يهمس قائلاً:

- ليتني فعلت ذلك حتى لا أجلس الآن ملوماً محسوراً.

خاتمة

لا أملك في نهاية هذه المآسي . . إلا أن أكرر ما قاله رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

«ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» . .

قريباً بإذن الله تصدر المجموعة الثالثة

قائمة بأسماء المكتبات المتوفرة لديها « الكتاب »

المنطقة	المكتبة	الهاتف
جدة	مكتبة العلم	٦٨٧٧٠١٤
=	الجريسي	٦٨٢٦١٠٥
=	دار الضياء	٦٨٩٣٨٦٤
=	مكتبة المأمون	٦٤٤٦٦١٤
مكة المكرمة	مكتبة الاستقامة	٥٣٤٠٨٢٢
المدينة المنورة	مكتبة الدار	٨٣٨٣٠٩٥
الرياض	مكتبة الرشد	٤٥٩٤٤٧٢
=	الجريسي	٤٠٢٢٥٦٤
=	مكتبة المعارف	٤١١٤٥٣٥
=	مكتبة الراية	٤٩١١٩٨٥
=	مكتبة العبيكان	٤٦٤٦٣٠٦
القصيم	مكتبة البخاري	٣٢٣٦٠١٧
الطائف	مكتبة الصديق	٧٣٢٣٣٣٧
الإحساء	مكتبة الظلال	٥٨٦٥١٤٨
أبها	مكتبة الأنصار	
الجبيل	مكتبة الصديق	٣٦١٣٦٩٠
الدمام	دار إبن الجوزي	٨٤٢٨١٤٦
	الجريسي	٨٢٧١٨١١
الخبر	دار الهجرة	٨٩٨٣٠٠٤
حائل	مكتبة الأندلس	٥٣٣٣٣٤١
قطر	مكتبة إبن القيم	٨٦٣٥٣٣
البحرين	دار الأرقم	٣٣٠٤٨٢
الكويت	مكتبة المنار	٢٦١٥٠٤٥
=	مكتبة الإمام الذهبي	٢٦٥٧٨٠٦
مصر	دار الاعتصام	٣٥٥١٧٤٨

أسعار خاصة للمحسنين